
الأمير



نيكولا ميكافيللي

الأمـيـر

ترجمة : لمياء أديب منذر

الأمير

الكاتب: نيكولا ميكافيللي

المترجم: لمياء أديب منذر.

عدد النسخ : ١٠٠٠ نسخة

سنة الطباعة : ٢٠١١

الترميز الدولي: (ISBN): 978-9933-410-51-3

جميع العمليات الفنية والطباعية :

دار مؤسسة رسلان للطباعة والنشر والتوزيع

يطلب الكتاب على العنوان التالي:

دار مؤسسة رسلان

للطباعة والنشر والتوزيع

سوريا ـ دمشق ـ جرمانا

هاتف: ٠٠٩٦٣١١ ٥٦٢٧٠٦٠ / ٠٠٩٦٣١١ ٥٦٣٧٠٦٠

فاكس: ٠٩٦٣١١ ٥٦٣٢٨٦٠

ص. ب : ٢٥٩ جرمانا

المقدمة

عزيزي القارئ، الكتاب الذي بين يديك قُرِأ آلاف المرّات وتُرجم بشكل مستمر وتم شرحه إلى أبعد الحدود، كأنه دليلٌ وهاديٌ للبعض، وشيطانٌ متملّقٌ للبعض الآخر.. لقد عبر القرون بضجّة وشُهرة فأكتسب قُرَّاءً اعتبروا أنفسهم تلاميذه، ورأوا فيه كشفاً عن موارد كانوا يجهلونها فأرادوا استخدامها في السياسة والجيش واقتصاد السوق وحتى في غوايات الحب.

ربما أنك تجهل أن المخطوط الأصلي لهذا الكتاب قد فُقِدَ، وأنَّ النسخة المهداة للشاب "لوران دو ميدتشي" والتي حُفِظَ أصلها في مكتبة الميديتشيين حتى القرن السابع عشر، قد اختفت. وبسبب تنوّع نسخاته المتتالية لم يعد هذا الكتاب هو ذاته. ومن خلال رسالة موجّهة من الكاتب إلى صديقه "فرانسيسكو فيتوري" استطعنا الإطلاع على ظروف تأليف هذا الكتاب: في ١٢ كانون الثاني من عام ١٥١٣ عُزل "ميكافيللي" من القُنصلية الفلورانسية. وكان مشتبهاً به كمحرّضٍ لمؤامرة ضد الكاردينال "جوليانو دو ميدتشي" مع "أوغاستينو كابوني وبيير باولو بوسكولي"، فعُذِّب وحُكم عليه بالسجن مدى الحياة، وأخيراً أُطلق سراحه وحُدِّدت إقامته في منزل صغير له في "سان كوسيانو" ومن هناك كتب هذه الرسالة التي يصف من خلالها نشاطاته النهارية والليلية، وذلك في العاشر من كانون الأول من عام ١٥١٣ م. بعد أن تفرَّغ في منزله الصغير... كان يقرأ لشاعرٍ ما بالقرب من نبع ماء، ثم يلعب بأوراق اللعب أو النرد في النُزُل المجاور حيث كان يتبادل الحديث مع الناس

هناك، ثم يعود إلى منزله الصغير فيجلس في حُجرته: «عند عتبة البيت، أخلع ملابسي اليومية المغطاة بالطين والملونة كُلّياً وأرتدي حلّةً تليق ببلاط ملكٍ أو بابا، ثم أدخل البلاطات القديمة للأسلاف، حيث أُستقبَل بكل محبةٍ، فأثمل من هذا الغذاء الذي هو لي ومن أجله ولدْت. ولا أخجل من الحديث معهم وسؤالهم عن أسباب تصرفاتهم، وبدورهم يجيبونني برأفةٍ وإنسانية. وخلال أربع ساعات من الزمن، لا أشعر بأي مللٍ، فأنسى كل الهموم ويتلاشى خوفي من الفقر والموت... إنني أندمج فيهم تماماً. وانطلاقاً من قول "دانتي" بأنه لا علم دون أن يحفظ المرء ما فهمه، فقد قمت بتدوين ما استخلصته من حديثهم وكوّنت كرّاساً بعنوان "المبادئ" تعمّقت فيه بكل استطاعتي في أفكار هذا الموضوع، متفحّصاً ماهية السلطة وما هي أنواعها وكيف يُحتفظ بها ولماذا تُفقد».

بالرغم من وجود هذا الرسالة، فإن التأكُد من أن هذا الكتاب قد شغل ميكافيللي فقط بين صيف ١٥١٣ و١٠ كانون الأول من نفس العام أمرٌ شبه مستحيل. وقد طَرَحَ المفسرون افتراضات عديدة بخصوص زمن الكتابة وإعادة الكتابة التي يمكن أن تكون قد امتدت حتى شهر أيار من عام ١٥١٤ لا بل لعام ١٥١٨. وقد ترك لنا الزمان آثاراً لهذا الكتاب من مصدر مزدوج: الأول مصدر مخطوط (باليد) والآخر مصدر مطبوع. ونُشر الكتاب للمرّة الأولى في عام ١٥٣٢ أي بعد مرور خمس سنوات على وفاة "ميكافيللي" وكان ذلك بدايةً في "روما" (دار نشر بلادر) ثم في "فلورنسا" (دار نشر بيرناردو دي جيونتا).

وبالنسبة لعنوان هذا الكتاب فقد تأرجح بين "الأمير" و"السلطة" فهو كتاب عن حكم الأمير ويحتوي في الوقت ذاته على اعتبارات سياسية. حتى أن "أنغلز" ذاته قد احتفظ بطبعة محققة ومعلّق عليها[1] من المبادئ وذلك في عام ١٨٩٤ وفي عام ١٨٩٥ حصل على كتاب جيب.

---

(١). المحقق فيها والتي يوجد عليها تعليق.

وإذا أتينا إلى موضوع تكوين الكتاب، فإن المصدر المخطوط يُعتبر المصدر الجوهري لاحتوائه على شواهد وأمثلة أصلية من عام ١٥٣٢م. لاسيما وأن شواهد المصدر المطبوع أي نصوصه الداخلية مصححة ومحولة عن الكتابة الميكافيلليّة. وإذا قررنا أن نتبع المصدر المطبوع الأكثر قدماً بين النسخات الموجودة، وأن نعتمد عنوان الأمير فإن هذا قطعاً لن يسمح إلاّ بإطلاع موجزٍ على الأشياء وهنا يجدر لفت النظر إلى الحوار الذي يدور بين الناصح "ميكافيللي" والأمير الذي يمثّله الكاتب "ميكافيللي" مخاطباً إيّاه بـ "أنت" صفحة بعد صفحة.

انطلاقاً من وجهة النظر هذه، يبدو من الممكن التضحية بفكرة "السلطة" كعنوان للكتاب بالرغم من أهميتها البديهية في تكوينه.

مع هذا الكتاب يُمضي القارئ لحظات مشوّقة وممتعة بفضل إيقاعه وأسلوبه ومنهجه الذي خصّه به "ميكافيللي"، "يجعلنا نستنشق هواء "فلورنسا" الجاف المعطر، ولا يستطيع أن يُمسك نفسه عن طرح الأسئلة الأكثر خطورة بأسلوب ذكي حيث استعان بلعبة الفنان فتجرّأ على هذا التناقض بالجمع بين فكرة مستمرة وصعبة وعنيدة وخطيرة من جهة وإيقاع سريع من جهة أخرى، وذلك بمزاج طيّب ومتحمس"[1] إن هذا تجاهُل أكثر مما هو نكران لدور الكتاب الأدبي في نجاحه عبر القرون، ولكن يأتي ذلك نتيجة طبيعية لكميّة التساؤلات والاعتبارات التي أثارها. وقد ساد فيه إبراز التزعزع التاريخي للمنشآت الفلورانسيّة وضعف مُدن الحكم الإيطالي بمواجهة الغزاة الغرباء البربريين بالطبع ولكنهم أقوياء قادرون مع ذلك. وانطلاقاً من هذا نواجه الحاجة الملحّة للحرب ولإعادة تشكيل المدن. وفي هذا الموضوع تبنّى "ميكافيللي" موقع المؤرخ في زمان الأزمة، ذلك الموقع الذي

(١) عن كتاب "نيتشه" من الناحية الأخرى جيد وسيء.

عرّفته "هانا أروند": «عندما تجعل أحداث الحاضر من الحكمة الموروثة عن الماضي باطلاً، وتجعل التصرّف بحسب "المعنى الشائع" دون فائدة، يُصبح من الضروري استعادة البُعد السياسي للحكم وطرح أنواع وأُطُر جديدة للتحليل من أجل فهم هذه الأحداث آخذين بعين الاعتبار ومحددين أهداف هذا التصرّف وأشكاله» هذه هي المهام التي تفرض نفسها، وهي صعبة الإنجاز استثنائياً، لأن التمييز بين ما اعتدنا عليه وما هو مبتكر ومختلف يستدعي حالة خاصة من الحكم. وبالنسبة لهذه الحالة في هذا الكتاب، فإنَّ دور الناصح الذي أحب "ميكافيللي" أن يلعبه بوضوح بالقرب من الأمير قد تحدّد وتعمَّق لأن الأمير ومهما يكن بعيد النظر غير قادرٍ على الاقتصاد من ذلك الجهد اللازم لفهم وتحديد شروط تصرّفه. ولكنّه لا يستطيع مع هذا بذل هذا الجهدِ وحيداً وهو ملتزم بالوقت ذاته بتصرّفه كحاكم لأنه ببساطة لا يجد متسعاً من الوقت. هذا النقص بأوقات الفراغ يرُغمه على الإصغاء لشخصٍ ما. إن طرش الملوك الذي أعلن عنه "رافائيل"، والمسافر الذي مثله "مور" في "اليوتوبيا"[1] لا يمكن أن يسود. وبالنسبة لـ "ميكافيللي" على الأمير أن يُصغي إلى ذلك الذي لديه الوقت للملاحظة والتمييز والانسجام مع الحدث، دون أن يكون له الحق بأخذ القرار وبشكلٍ معكوس، فإن "ميكافيللي" يرى أن قيمة نصيحته تأتي من معرفته العملية لفن الدولة وبشكل عام من الخبرة التي اكتسبها خلال سنين خدمته في القنصليّة الفلورنسيّة. وفي رسالته إلى "فرانسيسكو فيتوري" في ١٠ كانون الأول عام ١٥١٣ م صرّح "ميكافيللي" بشكل فعلي بخصوص الكُرّاس: «بالنسبة لهذا الشيء، إذا قرأناه سنرى أنه خلال ١٥ عام من ممارستي لمهنتي في وظيفة

---

(١) بلد خيالي يعيش فيه شعبٌ سعيد في ظل حكومة مثالية على غرار جمهورية "أفلاطون" والمدينة الفاضلة "للفارابي".

الدولة لم أنم ولم ألهو. ويجب على كل شخص أن يرغب باستخدام ما لديه من خبرة واسعة اكتسبها على حساب الآخرين». هذه الخبرة بالأحداث الحاضرة والتي هي نتيجة قراءة متعمقة للأسلاف تشكّل شرطاً أساسياً للنصيحة: الناصح الجيد من يكون الوجود لديه خليط من العمل والراحة لا يمكن فصله: بالانطلاق من التفكير المطروح مِن قِبَلِ "كوجيت" حول العلاقة بين الفيلسوف والطاغية نلاحظ بسهولة كم هو قادرٌ هذا الشكل المختلط لوجود الناصح على تشويش من يختار حياةً مليئة بالتأمُّل والتفكير، وكم يُساعد، بالمقابل، مَنْ يريد الدخول في حياة المدن، هنا نستطيع تمييز مفهومين للحقيقة حسب مضمونها فيما يخص طريقة الحياة، ومع أن الوجود بحد ذاته غير متبدل إلاّ أنه لا يستطيع منح نفسه للإنسان إلاّ كحقيقة خالدة ومُطلقة سواءً من خلال المجاهرة به أو من خلال الجهد الذهني للفرد: «إذا كان الأمر هكذا، يمكن للفيلسوف ويجب عليه، في الوقت ذاته أن ينعزل عن العالم المتغيّر الصاخب (الذي ليس إلاّ "مظاهرة" صاخبة) وأن يعيش في أحضان الطبيعة الهادئة أو عند اللزوم في "جمهورية آداب" حيث تبقى المنازعات الذهنية أقل صخباً، بالرغم من كل شيء، من الصراعات السياسية في الخارج. في سكون هذه العُزلة وضمن هذا التجرُّد الكامل نحو نُظرائه والمجتمع بشكلٍ عام، يُصبح لديه فرصٌ أكثر لإدراك الحقيقة. وللبحث عنها فيكرِّس كل حياته لهذا... حياة فيلسوف أناني حتماً».

إذا اعتبرنا، في كل مرّة نعكس كون الكائن ينبع بشكل أساسي من صيرورة تاريخية فإنّه ومن منطلق سياسي يجب، بالعكس، الابتعاد عن الوحدة ومخالطة المواطنين كما قال "سقراط" لا بل والاشتراك في إدارة قضايا الوطن...

لو أراد "ميكافيللي" اتخاذ فريقٍ له فإنه سيختار بلا شك أولائك الذين يتطلعون إلى التفكير بقضايا الوطن بل إنهم يختارون عدم الانسحاب والانغلاق على أنفسهم كطريقة لوجود وقتٍ كافٍ للتأمَّل: إنَّ هذا الوقت يسبق أو يرافق الخبرة المفيدة للكتابة (وقت الكتابة الساكن الهادئ).

في الواقع، إن "ميكافيللي" لا يسعى وراء حقيقة الإنسان، وإنّما وراء تحديد ظروف تصرّف الأمير. ويتم ذلك من خلال حوار حول الأمور كما هي، أي بحقيقتها. وهذا ما يشير إليه الفصل الخامس عشر الذي يتركّز حول الإفصاح عن الحقيقة الكاملة. ولكن... كيف أظهر "ميكافيللي" هذا التحديد؟؟ بالابتعاد عن النظرية يمكننا أن نجتهد بأن نستخرج من الكتاب الدوافع التي تمييز أسلوب تصرّفه. بدايةً إذا أراد أن ينصح الأمير لن يكون مقيداً بوجهة نظره، على سبيل المثال إذا أراد تحقيق رغبة الأمير بالغزو والبقاء على رأس مدينة أو مقاطعة، يُظهر نفسه أهلاً للتأمُّل ووصف وجهات نظر أولئك الذين يقفون في طريق الأمير لأن الأمير لن يستطع، في الواقع، التوصّل إلى أهدافه دون فهمهم ودفعهم إلى مساعدته أو على الأقلِّ إلى عدم الإضرار به.

ونلاحظ أن "ميكافيللي" يستحضر منذ الإهداء الأماكن الأفضل لملاحظة ومعرفة طبيعة الأمير والشعب وذلك من خلال مقارنةٍ بين عمله وعمل الرسّام. كصدى لأعمال المنظور في القرن الخامس عشر استطاع "ميكافيللي" أن يستعيد السؤال الباسكالي: «يجب أن أعمل مثل الرسامين وأن أبتعد ولكن ليس كثيراً... كم إذاً؟ أحذر». إن هذه الصعوبة في أخذ الموقع المناسب تُضاف، إلى تلك الصعوبة في مراعاة عددٍ كبيرٍ من وجهات النظر: الأعداء والحلفاء من جهة والطبقة العُليا والشعب من جهة أخرى. وبصراحةٍ، يجب ألاَّ نأمل بتبني نظرة متطرّفة تجمع بين كل هذه الأطراف، بل على العكس يجب أن نأمل بقبول الدخول إلى كل طرفٍ منها وبمعرفة

الانتقال من واحدٍ إلى الآخر: وهنا يمكن العمل للانتقال من مكان أو عالم عبارات إلى مكان أو عالم عبارات آخر.

ومن جهة أخرى فإن "ميكافيللي" لا يحدد شروطاً للتصرّف، لكنه يُغرق الأمير في تحاليل متنوعة لحالات لأسلافه (النماذج[1]) باستخدام دورها الكبير في النهضة الإنسانية، توصّل "ميكافيللي" معها إلى نظام أساسي مُبتكر.

ـ المفاجأة الأولى: إن النماذج لا تأتي إطلاقاً من خلال مجرد الإطلاع عليها أو أخذ فكرةٍ عنها. بل إن "ميكافيللي" من خلال عرضه لها يفكّر ويحكم ويقيِّم ويبيِّن الحليف والعدو ويُناقض ويتساءل ويُناقش.

ـ المفاجأة الثانية: إن التاريخ الذي استخلص منه "ميكافيللي" هذه النماذج مسرودٌ تبعاً للنهايات المبرهن عليها من قِبَلِهِ وبإمكاننا التحقق منها بالعودة إلى تاريخ الأباطرة الرومان لـ "مارك أوريل" وإلى غوريا الثالث لـ "هيروديان" وهو أساس وصف الأباطرة الرومان في الفصل التاسع عشر، وقد غيّر "ميكافيللي" هدف هذا المصدر بطريقة ملحوظة حيث أنه لم يشر إلى التعارض الموجود بين الأباطرة الليـنين اللطفاء في الشرق، والأباطرة البربر الطغاة. بل أصرَّ على المشكلة الواجب علينا جميعاً مواجهتها وهي الدور الأساسي للجنود بالنسبة لقُدرتهم وضرورة كسب ودّهم. ولم يهتم "ميكافيللي" بالترتيب الزمني (التسلسل الزمني) المعتمد من قِبَلِ "هيروديان" لتصنيف الأباطرة في مجموعات مختلفة كي يستطيع تقدير أسباب النجاح والفشل، وبذلك دعم الفكرة القائلة بأنّه يجب على الأمير أن يهتم قبل كل شيء بألاّ يكون مكروهاً من شعبه إذاً لقد استفاد "ميكافيللي" من عمل "هيروديان" فأعاد تشكيله من خلال الإضافات والإغفالات وبذلك توصّل إلى

(١) شخصيات من القدماء ذات تصرُّف نموذجي أي شخصيات نموذجية.

طرحٍ جديد. وهكذا توجهت مناقشاته إلى أسباب الكره وهو ما جعله "بيرتيناكس" هدفه، وأكمل "ميكافيللي" بالحديث عن سبب الاحتقار وهو الهرم (الشيخوخة). دون التطرّق إلى مناقشات "بيرتيناكس" في مجلس الشيوخ القادرين من جهتهم على خدمة تحليل الحريّة. وانطلاقاً من هذا الكتاب نستطيع لمس هذا التحويل النصّي والنقدي وذلك لأن المادة التاريخية مُشكلة من جديد لا بل مُبدَّلة "نُسختها" وسواءً أكانت مقروءةً أو معاشةً، تظهر بشكل مشابه لنص طرس[1] حيث يعاود فيه المفكر السياسي العمل كما يحلو له ودون توقّف. ومن جهة أخرى فإنّ حرّية الكتابة هذه تمييز عمله. كما تَظْهرُ أيضاً وبشكل مماثل في كتابه "الخطابات" وهذا ما أشار إليه "ماتوكس" من خلال تحليل اللفظين الذين انطلق منهما "ميكافيللي" في وصف هذا العمل: وهما المناقشة والسرد.

ـ المناقشة استُخدمت بشكل رائج في النصف الأول من القرن السادس عشر. وتعود لفكرة حركة العقل أي التفكير، وهي تنطبق على النص دون الحدث وتتعارض مع العادات. وتخلط المناقشات حسب "ماتوكسى" بين هدفين يستمران حتّى الآن متمايزين في التاريخ المكتوب لـ "فلورنسا": سرد التاريخ والتفكير بالتاريخ وتحليله.

ـ السرد مستخدم، في نفس السياق، وفي إهداء "الخطابات" وهو يعود إلى ذلك الأسلوب الذي أُبعد من المقال السياسي بقدر ما أُبعد من المقال التاريخي: هذا ما يعني العبور إلى "الأراتيو" أي حسب المعنى الذي منحه له "سيسرون": العبور إلى الإثبات.

وهذه الحرية ذاتها نراها وبنفس القدر في الحدث حيث نرى أن "ميكافيللي" يستخدم نفس الحدث والشخص ولكن بطرق مختلفة حسب

(١) رقّ (جلد للكتابة) ممسوح ومكتوب عليه ثانية.

البرهان الذي يريده. ولكننا لا نستطيع انتقاده انطلاقاً من معايير دقّة الوقائع والاستخدام العملي للمصادر وذلك لأنّه يستخدم المثال (النموذج) عمداً بطريقةٍ حرّة. ومن هذه الناحية نجد البرهنة مؤكّدة لسببين: بالإضافة إلى أن الواقعة (الحدث) هي مكان التحضير فإنها تتحوّل بليونة حسب هدفه. وهكذا ظهر في الفصلين ٣ و٢٤!؟ فيليب دو ما سيدوان: حيث جسَّد في الأول شكل الفشل أمام "الرومان" لأنه لم يتوصّل أبداً إلى كسب ودّهم دون إذلاله. وفي الثاني اختاره "ميكافيللي" لأنه عرف كيف يواجه الرومان بثبات رغم صغر أراضيه. وهكذا فقد أُظهِرَ كمثالٍ للأمراء المهزومين في «إيطاليا» من قِبَلِ الجيوش الأجنبية.

ـ ثالث وأخر مفاجأة: بعيداً عن إيضاح التصرفات المحتذى بها، فقد كشفت نماذج "ميكافيللي" غالباً عن هزائم ونقاط ضعف، وفي هذه الحالة يشكلون نماذج معاكسة للقواعد والعادات والنصائح التي أراد "ميكافيللي" رفضها أو الموافقة عليها أو تطبيقها على الكل... وهذا عكس المثل القائل: «ما يُطبّق على الشعب يُطبّق على الوحل» الذي استشهد به "ميكافيللي" في حديثه عن النموذج "المغرق" في "روما" و"جورجيو سكالي" في "فلورنسا" في الفصل الثامن.

وبالتأكيد هناك الكثير من النماذج التي تشير إلى الطريق أثناء تحليل ظروف التصرّف: الأمير الذي يخاطبه "ميكافيللي" لديه أسلاف وهم رجال متفوقون جداً، لذلك بإمكانه لا بل عليه أن يقتدي بهم. ولكن بالمعنى الحرفي للكلمة، ما الهدف من تقليدهم ؟ بقراءة "غويكسيا رديني" صديق ومحاور "ميكافيللي" حول مصالح الدولة، يمكن التفكير بهذا السؤال.

يلوم "غويكسيا رديني" "ميكافيللي" على قلّة التمييز وعدم الانتباه إلى فكرتي الخصوصيّة والاختلاف بين العصور الذين يجعلان من التقليد أمراً

مستحيلاً ومن الادّعاء بإمكانية استخلاص دروسٍ من التاريخ أمراً باطلاً. إنَّ هدف "ميكافيللي" أكثر تعقيداً بلا شك ورغم وجود صعوبة في إيضاحه إلاّ أنه لا يمنح في عمله أي مكان لنظرية من التاريخ تعتمد على ذلك التقليد المرجو. وسيكون من الخطأ القول بأنه اشترط تماثُلاً بين الأزمنة القديمة والحديثة. ولكننا لا ننكر بأنّه شكَّل كتابه من مجموعة دلالات عن الأحداث التي أثبتت تلاقياً بين هذين الزمنين وتشابهاً ومحاكاةً فيما بينهما. ويمكننا الافتراض، دون تحريف النص، أن هؤلاء الأخيرين قد حافظوا على استمرارية العواطف الإنسانية، وعلى تمثُّل نفس الرغبات والطباع السياسية والمحددة في الفصل التاسع في كل مدينة وهذه الأمور قد كشفت بدورها من خلال التأكيد على هذا الاستمرار عن فكر إنساني أو فرضيّة ضروريّة للذين يريدون التفكير في عوامل وظروف الغزو وشروط الحفاظ على سلطة الدولة.

في الأمثلة التي أعطاها "ميكافيللي"، لا تدعو استمرارية العواطف والطباع هذه أبداً إلى خلط الحالات الخاصة من النماذج المثالية التي تحدد أنماط تصرّف الأمير. لا بل تسمح للمؤرخ في أثناء ممارسة حقّه بإبداء وجهة نظره. بالانتقال بحريّة من زمن إلى آخر، وبفضل هذه الحركة يُتاح له التعبير عن المبادئ التي تقود الحدث وبالرغم من أنّها لا تحدده إلاّ أنها تمييز بين الاختيار الجيد والاختيار السيء.

وهكذا ثابر "ميكافيللي" على الإشارة إلى التعارض بين قراءات الرومان التي قادتهم إلى النجاح في مستعمراتهم، والمبادرة السيئة لـ "لويس" ملك فرنسا، عندما غزا الأراضي الإيطالية. هاتان السلسلتان من الأمثلة اللتان تصفان هذه الاختيارات السيئة والجيدة، تدخلان في مقارنة تجعل من الممكن تعيين الهدف ذاته. (غزو بلد جديد بظروف متشابهة ورغبات، ومشاعر البشر سواءً أكانوا رعيَّةً أم حلفاء، وأسباب تمسّكهم بأمير جديد).

لنتحدث أيضاً، عن فكرة التمييز بين التقليد الأعمى والتقليد الفعّال، التي ستسمح لنا بمعرفة كيفية انضمام الأمير من خلال فضيلته من وجهة نظر "ميكافيللي"- إلى سلالة الرجال العظماء وكيف يمكنه في نفس الوقت أن يكون خلّاقاً. يقتبس من العظماء أعمالهم ثم يشكِّل عمله ضمن محيطه الخاص. وهكذا يمكن أن يبدو هذا العمل مبتكراً انطلاقاً من هذا المنظور، فإن المقارنة المستخدمة في الفصل السادس لها أهمية خاصة وهي مقارنة بين المقلِّد ورامي السهام الذي يرى دريئته أعلى من المكان الذي ثبتت فيه. ومن خلالها (أي المقارنة) أصرَّ "ميكافيللي" على سببين لاستحالة التكرار وهما: المسافة بين المقلَّد والمقلِّد مبيِّنة بجلاء. وطريق الإبداع والتجديد مفتوح. لذلك لا يمكننا أن نسلك نفس طريق من نقلِّد وأن نُحاكي أعماله.

تُضاف مجموعة الأمثلة والأمثلة المعاكسة التي يجنيها الأمير عند الانتهاء من القراءة إلى المؤونة، إذا استطعنا القول، التي نعطيها للمسافر. فيصبح بإمكانه معاينة الوضع لتقدير الحالة الراهنة وعلى ضوئها يجب عليه أن يتصرّف.

لقد أوجز الكاتب "ميكافيللي"، كما قالها مراراً، الصور والأمثال التي يجب على الأمير أن يتذكرها دائماً. ومن خلال هذا الإيجاز، ركّز على فعالية النصيحة: إن أشخاصاً وأحداثاً واضحة تفيد الأمير أكثر مما تفيده مخطوطات طويلة ومنمّقة أو حتّى سرد تاريخي وافر ومفصَّل عن خبرته الشخصية. مثلاً نهاية "سافونارول" تنبّه بطريقة ما مَنْ يريد حكم مدينته، إلى ضرورة السلاح. إن استحضار هذا الغونفولونيغات[١] في "سودرنين" أتاح لـ

(١) نوع من الحكم القديمة في إيطاليا.

"ميكافيللي" حث الأمير على الحذر من الناس واستخدام الشر ضدهم عند الضرورة.

تُعدُّ أعمال النقل والاقتباس والاختيار والتقييم التي أجراها "ميكافيللي" من خلال هذا الإيجاز، شديدة الأهمية.

بالاستشهاد بكتاب الأمير المنشور عام ١٨٩١ من قِبَل "آرثر بورد" والمعتمد فيه على الرجوع إلى المصادر القديمة لـ "ميكافيللي"، نجد أنّه، من خلال هذا الإيجاز، يبيّن "ميكافيللي" للأمير النهج الواجب عليه اتباعه في أفكاره، ولكنه لم يبح له بأيّة وسيلة لذلك.

وهو في برجه، يتوضّح للأمير أي أمرٍ يريد من مجرى الأحداث الراهنة وذلك بفضل القراءة والمناقشة والتفكير والتساؤل والمقارنة. وبما أنه، كما قُلنا، ليس لدى الأمير وقتاً يكرّسه لهذا التفكير وهذا أمر جيد بالنسبة للناصح. فقد استفاد "ميكافيللي" من وقت الفراغ المخصص للصيد. الذي يمارسه الأمراء، وحثهم على التفكير بفنون الحرب خلال هذا الوقت، وفيما يخص هذا الموضوع، يحتوي الفصل الثالث عشر على جدول بما يجب على الأمير فعله عندما يخرج إلى الطبيعة مع الرفاق: قال "فيلوبومين" أمير آشين متأمّلاً المناظر الطبيعية: بأنه يجب ملاحظة الأفعال الدفاعية والهجومية المحتملة ومناقشتها على اختلافها مع الرفاق. وهذا أمرٌ بالغ الأهمية والفائدة للأمير وذلك لتشابه الأماكن. وبإمكانه أن يعتمد عندما يواجه معركة حقيقية على معرفة الطبيعة هذه والمناقشات التي أجراها مع رفاقه.

إن هذا النهج الذي حثَّ عليه ونفّذه "ميكافيللي" لا يلائم الفكرة القائلة بأن كتاب "الأمير" يعلن عن قواعد تصرّف الحاكم القيمة العامة. بالتأكيد، لقد استخدم "ميكافيللي" ذاته كلمات "قاعدة" "قرار أو حكم" ولكن، من خلال تأمُّل الأحداث وتحليل الحالات الخاصة، تبيّن أن هذه

القواعد الملاحظة تبقى نسبية: بعد إعلانها (أي القواعد) إشارة "ميكافيللي" إلى حالات لا تتبَعُها وإلى حالات أخرى تتبعها ولكن بشروط.

وبالمناسبة، بعد التأكيد على أهمية أن يمّرن الأمير فكره على تخيّل الأوضاع المحتملة والتصرف المناسب لكل وضع فيها، يمكننا أن نحقق قفزةً في الكتاب إلى الفصل ٢٣. حيث يبدأ وصف الأمير الذي تكلَّم عنه "ميكافيللي" فقال: إنّه رجلٌ حكيم وهذه الحكمة هي بالضبط ما يسمح للإنسان بتطبيق القواعد بدقة وبتعديلها حسب الوضع، لا بل إنها تسمح له بابتداع قواعد جديدة من خلال المقارنة والتحويل القياسي من وضع سابق إلى الوضع المعاش حاليّاً، كالطبيب الذي يشخّص المرض ويحدد الدواء الذي يجب استخدامه في كل مرّة بطريقة خاصة.

إذا لم تكن مسألة قواعد عامة للتصرّف مِن ماذا إذاً تتكون النصيحة المسداة للأمير والتي تشكّل مادة هذا الكتاب؟

يطمح "ميكافيللي" إلى أن يرسّخ عند الأمير الاهتمامات والهموم الواجب عليه الانشغال بها. ويجب على الأمير قبل كل شيء ألا يكون مرتبطاً بقوّات بإمكانها تدميره في إي لحظة بل عليه أن يبني قوات خاصة به لا يثق بسواها.

تجسّد شخصية قيصر "بورجيا" في ذروة الفصل السادس مصدر هذه الاستقلالية عن القوّات المدَمِّرة، حيث نراه يتخلص تدريجياً من الارتباط بقوات الغير ويبدأ في نفس الوقت بتدميرها وبتقوية التحالفات التي تتصدى لأي اعتداءٍ من هذه القوات، وهكذا يكسب ود شعب البلد التي فتحها.

مع أن القوّة الأوّلية المذكورة في كتاب "الأمير" لا تتعارض مع العناصر الأخرى إلاّ أنها تبقى تلك القوة التي تؤكد السلطة العسكرية. وهذا ينطوي على أمور كثيرة: حيث ينجم عنه رفض الجيوش المُستأجَرة التي تقاتل من أجل الدول مُقابل أجرٍ تتقاضاه منها، وليس بدافع حب الوطن القادر وحده

على تشجيع الجنود وحثهم على القتال، في زمن كتابة هذا الكتاب كان نقد "ميكافيللي" مضاعفاً: "فلورنسا" كغيرها من المدن الإيطالية، خاضعة للغزو الأجنبي وغير قادرة على المقاومة لضعفها العسكري هذا من ناحية، ومن الناحية الأخرى فإن استخدام الجنود المستأجرين أصبح أمراً شائعاً إنَّ "ميكافيللي" لم يعترض فقط على استخدام هؤلاء المستأجرين، بل أيضاً على التحالفات العسكرية التي يُجبر المنتصر فيها دائماً على تقاسم النصر مع حلفائه الذين يطمعون بأفضل قسم من الغنيمة. وقد كرر نفس النقد في كتاب آخر له، فقال: «ليس المال عامل الحرب الأساسي» وكانت نصيحته بتجهيز جيش خاص (ميليشيا)[1] مؤلف من عناصر وطنية محليّة.

هذا النقد وهذه النصيحة أعلن عنها "ميكافيللي" بشكل مبكّرٍ في كتاباته. وإذا كان "بروني" من قبله و"غيانوي" من بعده قد شرحا أفكاراً مشابهةً، فإن قوّة ووضوح تعبيره جعلا منه المدافع الأكثر قناعةً بضرورة الجيش الخاص. لاسيما وأنّ منهجه يحافظ على الأصالة في انسجام الانتقادات فيما يتعلّق بالربط بين مشروع جيش خاص وتحليل طريقة الأمير في تقوية علاقته بالسادة والشعب. وهنا لا معنى للفصل بين السياستين الداخلية والخارجية. حيث أن أميراً مكروهاً من مرؤوسيه، هو أمير ضعيف من وجهة النظر العسكرية: لأن رعاياه سينجذبون إلى التغييرات المُحدثة بغزو أميرٍ آخر أو جمهورية أُخرى، فيزداد كرههم لأميرهم ويتصدّون للأقلية التي تدافع عن الأمير. وكلامُنا هذا في مصلحة الشعب الذي يشكّل بعدده الكبير المكوّن الأساسي للجيش الخاص، ففي الفصل الثامن من هذا الكتاب حيث توجد دراسة ظهور الإمارة المدينة ـ التي تظهرُ فجأة عندما يصبح رجلٌ من المدينة أميراً بفضل تأييد السادة أو الشعب ـ يصرُّ "ميكافيللي" على ضرورة أن يكسب هذا

---

(١) جيش شعبي.

الأمير ودَّ شعبه إذا كان السادة هم من أوصلوه. ولكن يجب عليه ألاّ يهمل السادة أيضاً، لأسبابٍ مُختلفة: فهم يرون أنهم ببُعد نظرهم ودهائهم اللذان يميزانهم عن الشعب استطاعوا أن يصلوا إلى النجاح وليس بعددهم.

العلاقات التي يوطّدها الأمير مع السادة والشعب يجب أن تكون ذات طبيعة محددة بعمق. في الفصل الثامن يقول "ميكافيللي" إنه في كل أمّة رغبتان: الرغبة الأولى لدى السادة وهي طموحهم بالقيادة والسيطرة والاضطهاد والرغبة الثانية لدى الشعب الذي يطمح بألاّ يُسيطر عليه وألاّ يُضطهد بل على العكس أن يملك شيئاً من السلطة.

وتختلف هاتان الرغبتان بحسب تاريخ الأمّة، ومن أجل توضيح هذه الناحية يمكننا تصوّر قطبين متنافرين حيث بّني الأوّل من قِبَلِ الأمّة واعتاد عناصره على الحريّة، وهنا يرغب الشعب بالحرية ويطالب بجزء من القرار والسلطة المُتداولة. وكمثال على هذا نأخذ تاريخ الجمهورية الرومانية في العصور القديمة، و"فلورنسا" في العصور الحديثة أمّا القطب الآخر فهو لأمة محكومة منذ الأزل من قبل (ملك) ولا وجود للرغبة بالحريّة فيها، ومع أن الشعب في هذه الأمّة لا يريد أن يكون مضطهداً، إلاّ أنّه لا يُطالب بسلطة لنفسه. أمّا بالنسبة للسادة فرغبة الاضطهاد لديهم تصل إلى أبعد الحدود. بين هذين القطبين المتنافرين يمكننا تخيُّل جميع الاحتمالات.

لتمييز هذا العلاقات بين السادة والشعب من حيث السيطرة أو عدمها يجب الانتباه إلى أن "ميكافيللي" استخدم بالإضافة للتعابير: "الرغبة" و"الشهوة"، كلمة "الخلط[١] " التي تقودنا مباشرةً إلى مصطلح طبي مُتحدِّر من مدوَّنة[٢] أبقراطيّة، كانت سارية في عصره ومستخدمة بسهولة في النقاشات حول الأمّة.

---

(١) أحد أخلاط الجسم الأربع.

(٢) مجموعة قوانين.

بالمقارنة بين استخدام "ميكافيللي" لهذا المصطلح واستخدام "سافونارول" أو "غويكسيا رديني" له مثلاً نلاحظ خصوصية الاستخدام الميكافيللي الأكثر تناسقاً من معاصريه.

ويشغل هذا المصطلح مركزاً أساسياً في الفكر "الميكافيللي" لصيرورة الأمّة وعمل الأمير. ومع أنّه لا يَرِدُ أبداً في الكتابات السياسية في عصرنا، إلاّ أنّه كان حاضراً في كتاب الأمير والخطابات وتاريخ فلورنسا. وإذا أُسْقِطَت هذه الرغبات على فئات من المواطنين (كما في كتابنا هذا الشعب والسادة)، فإنها لن تكون بنفس الحدّة وبنفس السويّة عند كل الفئات. وقد أثيرت مسألة الأنواع هذه عندما تحدّثَ "ميكافيللي" عن موضوع توزيع المسؤوليات في الدولة، في حيث ظهرت الرغبات أو الأخلاط عندما حلل مسألة التغيير أو إعادة تشكيل المؤسسات العامة أو بالأحرى إعادة بناء النظام. إنّ هذه الأخلاط تتغذّى من بعضها البعض دون فاصل محدد فيما بينها. ومن خلال تعارضها تشكّل أساس الحركة التاريخية اللامتناهية.

"الخلط" يوضّح استخدام هذا المصطلح الطبي للقارئ خاصةً وأن الأمّة بالنسبة لـ "ميكافيللي" كان المزج، ومن أجلها يجب أن نجد التركيب الجيد المتناغم: كما تتحد أخلاط الجسم البشري بطريقة ما لتعطي الصحة أو المرض، حسب نسبة كل واحد منها، كذلك طموحات السادة والشعب ترتبط بصلةٍ ما لتجعل مستقبل الأمّة أكثر أو أقل سعادة.

بين الانشقاق المدمِّي والتعايش السلمي يمكن تصوّر أي تسلسل للعلاقات والاختلاطات بين رغبات الشعب ورغبات السادة.

عندما يحكم أمير بالوراثة أو بالغزو دولةً ما يجد نفسه في مواجهة مسألة مزج الأخلاط لأنه بحاجة من وجهة نظر عسكرية لصداقة الشعب لكي يتجنب حرب أهلية أو مؤامرة جنده. وبإمكان الأمير أن يؤثر نوعاً ما على هذه

الأخـلاط، لكـن دون أن يـسعى إلى المـصالحة فيمـا بيـنهم لأن ذلـك لـن يجـدي نفعاً، بسبب أطماعهم الخاصة المتعارضة فيما بينها، وبالمقابل بإمكانه أن يشكل المزيج الذي يحفظ سلطته والدولة بشكل عام من الخطر. بالطبع، يجب أن يكون عمل الأمير مستمراً على نطاق الرغبات المتوقعة دائماً، دون المطالبة بكشف مبدأ التركيب الذي يضبط إن صحَّ التعبير المسألة نهائياً، وبالإضافة إلى هذه الصعوبات في عمله هناك شيء آخر، حيث يجب على الأمير أن يعرف كيف يختار الوسيلة الأنسب لوضعه ولتاريخ الأمّة، لأن كل وضع يستوجب تصرُّفاً وطريقةً خاصة به، فيختار بين اللجوء إلى السلاح أو النفي أو الإعدام أو إيجاد نظام يسمح للسادة وللشعب بإرضاء شهواتهم أو ربما قانون ينظِّم الصراعات الخاصة بينهُم.

يجب أن تصل النباهة المطلوبة لهذا العمل إلى أبعد حد، لأن على الأمير أن يمنح السادة الإحساس بأن لديهم سلطة القيادة التي تناسب طموحاتهم واعتقادهم بأنهم هم من صنعوا أنفسهم من خلال طبقتهم العُليا. دون أن يُشعِر الشعب بالاضطهاد والسيطرة من قِبَلِهم. في الواقع، إن هذا يُشبه تربيع الدائرة[1]، ومع ذلك لا يصحُّ القول بأن "ميكافيللي" لا يتطلَّع إلى علاقة قابلة للحياة بين الأخلاط، أو على الأقل قابلة لحياة مؤقتة. ولنأخذ كمثال على ما سبق المملكة الفلورنسية في الفصل التاسع عشر من هذا الكتاب. حيث أعلنت هذه المملكة عن تجانُس الأخلاط فيها فوضعت كُلاً في مكانه دون أن تسبب اليأس للسادة وإلاّ لتآمروا ضد الأمير، وفي نفس الوقت حققت رغبة الشعب بألاّ يكون مضطهداً، وإلاّ لن يُدافع عن الأمير عندما يُهاجمه السادة أو أعداءٌ خارجيون.

---

(١) أمر مستحيل.

وإذا التفتنا نحو دراسة آثار ذلك العمل الذي يضبط الأخلاط على سمعه الأمير، نُلاحظ أن "ميكافيللي" يصف هذا العمل بألفاظ المشاعر والنزعات. وهذا الأمر يُعيدنا إلى البعد العاطفي الأساسي لتحليله ـ عاطفي هنا بمعنى أن أهوائه ونزعاته هي التي تُعلل هشاشة أو ثبات سلطته. وقد استبعد "ميكافيللي" فكرة الأساس العظيم، كما أهمل المبدأ القائل بأنه على الأمير أن يُسند سلطته على أعماله التي في مصلحة الشعب، فالسعي وراء المصلحة المشتركة دون تخييب أمل السادة وإرضاء الشعب في ذات الوقت أمرٌ صعب التحقيق.

صداقةٌ وحبٌ وكرهٌ وإعجابٌ، احترامٌ واحتقارٌ وخوفٌ.. كُلّها كلمات أحاط بها "ميكافيللي" نفوذ الأمير فيما وراء الموارد الماديّة التي يملكها، هذا ما جاء في الفصول المخصصة لسمعة الأمير وانتقاد القلاع والأملاك (من ١٥ إلى ٢١). وفي هذه الناحية يتعادل أميرٌ جيد وأميرٌ بالوراثة حيث يؤكد الفصل الثاني أنَّ عمل الأمير بالوراثة أكثر سهولة، لكن يأتي الفصل ٢٤ مُناقضاً لهذا التأكيد: إن الأعمال السامية تمنح الأمير الجديد سمعة واسعة وطيبة فيصبح بإمكانه التحلّي بمظاهر أمير قديم، ثم أن الأمير المتقاعس الذي ليس لديه بُعُد نظر يفقد ممتلكاته مهما يكن قوياً وراسخاً. وهذا ما ظهر من خلال هزائم الأمراء في إيطاليا.

يجب على الأمير أن يسعى وراء كسب الود لمواجهة حقد السادة والشعب، إنها نصيحة "ميكافيللي" على المستوى الأكثر عموميّة. لكن من الضروري تحليل علاقة الأمير بالسادة وبالشعب بطريقة أكثر خصوصيّة. وهكذا، من كثرة السعي وراء الودّ بالأعمال السخيّة والعطوفة، يؤذي الأمير نفسه: في وقت المحنة يفرض الخوف واجباً أقوى وأرسخ مما يفرضه الحب. إذاً يجب زرع مشاعر الخوف في الرعيّة على أن تكون من ذلك النوع الذي لا يرافقه

الكره. وفي هذا السياق - يُخْتَتم الفصل (١٦) أيضاً بتحديد تنظيم الأهواء التي تمكن أكثر من غيرها لاحتفاظ الأمير بسلطته: الخوف دون كره.

وبالنظر إلى طريقة تنظيم الجيش وتماسك السادة والشعب، يشير "الأمير" إلى نظرة عميقة في رفض الاستسلام والحتميّة والتقاعس، ويدعو إلى الالتزام بالعمل. وتجسد هذه الدعوة في شكلين: الأول الإعلان عن آثار الاستسلام أو التقاعس. ويدعو الفصل ٢٦ إلى التحرر الإيطالي من البربر بأسلوب ما زال تحليليّاً، لكنّه في الأصل انفعالي حيث أنه يشخّص وبكلمة واحدة أسباب الهزائم العسكرية: التقاعس.

وتبدو الدعوة من جهة أخرى وكأنها قرار ليس له دافع آخر غير رفض الاعتراف بجبروت القَدَر: اختار "ميكافيللي" في الفصل الخامس والعشرين تقسيماً متساوياً تقريباً بين الإنسان والقدر المسيطر على سير الأمور وذلك تماماً بعكس الرأي الذي أُسند إليه. هناك معنى وراء كل تصرّفٍ، لا سيما وأن أهداف "ميكافيللي" مرتبطةً بالزمن الذي يخضع لسلطة العناية الإلهية أي القدر والصدفة. ونرى في الفصل العاشر كيف أنَّ الإمارات الكنسية مستمرَّة مهما تكن الطريقة التي تُحكم بها، ويتابع "ميكافيللي" في هذا الفصل أنَّ حالة العمل المدهشة هذه مرتبطة بأولئك الذين يُختارون ويُصانون من الله وفق علاقة تقوم على أساس سامٍ للسلطة. وهنا لا تهم هذه الإمارات الكنسية "ميكافيللي" فقد قال: «لنبتعد عن الكلام عنها». ولا ينتهي الفصل بهذا الابتعاد بل إننا نجد نوعاً من الهزل والسخرية كردّ من "ميكافيللي" على ظهور الكنيسة كسلطة "سلطة زمنية" وقد طرح سرداً يتناول أفعال "ألكسندر السادس" و"يوليوس". في هذا البُعد الزمني حدد "ميكافيللي" تحليلاته بعلاقات القوّة وبالمقارنات وبتحديد شروط تصرّف الأمير: لقد أوجد "ألكسندر السادس" و"يوليوس" كنيسة تحكم بحد السيف والمكر

وبالتحالفات المؤقتة وليس بالتأسيس الجيّد وهنا لا يتصرف مَنْ يُمارس عليه الأمير أفعاله إلاّ كما يريد هذا الأمير.

ومن جهة أُخرى، نلاحظ أن هذه "السلطة الزمنية" لا تظهر بوضوح في الأزمنة المحكومة بغير الإرادة الإلهية فقط، وإنّما أيضاً في الأزمنة التي لا تتبع الفكر التنجيمي الذائع الصيت في عهد "ميكافيللي". ومع أن مناقشة عناصر الفكر التنجيمي في تفكيره واضحة في كتابه الخطابات أكثر مما هي واضحة في الأمير إلاّ أنّه من الضروري إرسائها لأنّها تؤدي إلى توضيح شروط عمل الأمير، وبشكل عام شروط عمل كل إنسان. وتشهد عدّة طروحات في تفسير كتاب التاريخ الروماني بأنّه من الممكن أن يكون لدى "ميكافيللي" اعتقادات تنجيميّة راسخة.

ومع ذلك من المهم التمييز بين التيار الحتمي الذي لا يشكّل "ميكافيللي" جزءاً منه، وبين التيار الذي يعترف بتأثير النجوم على عالم الأرض دون أن يقرَّ بدورهما في التسبب المطلق، ويبدو من السهل هنا الاعتقاد بإلحاق "ميكافيللي" بهذا التيار الأخير: يتحدّث عن التنجيم الطبيعي الذي يرى في حركات النجوم سبباً عاماً، وليس خاصاً بالأحداث الأرضية. نذكر جميعاً ذلك التأثير في كتاب الخطابات، والذي شكّل شرطاً للفعل الإنساني. وليس تحدياً له. وهو يُثبت ببساطة في الفصل الأول، الوجود الفعلي للإشارات السماويّة التي تُعلن عن الأحداث الأرضية والتي لا يعرف الناس تفسيرها دائماً.

وهكذا... تكون "السلطة الزمنية" في الزمن الذي لا يكون فيه الفعل الإنساني عبثيّاً بدل أن يكون دائماً فعّال: هناك الخيارات الجيدة والسيئة والمكائد الخسيسة والمتقاعسون أو بالعكس النشيطون والشجعان.

بالمقابل، إذا دعا "ميكافيللي" إلى الفعل أي التصرّف وفتح بشكل ما حقل الاحتمالات أمام الأمير، فإنه بذلك يقدّم احتمالات لا حصر لها.

وقبل كل شيء لا يمكننا تحديد فعل الأمير إلاّ على ضوء الظروف المحيطة به لأن هذا المحيط يفرض على الأمير تحديد أنماط فعله تبعاً له وهذا بعكس الفكرة القائلة بأن الأمير يتصرّف على هواه لذلك نرى تكرار الأفعال "يجب" و"كان عليه"، والصياغات اللاشخصيّة "من الضروري" ، "من الواجب"، والجمل المبنيّة للمجهول "مُجبَر" ، "مُرغَم" أو "أنّه من الضروري".

من وراء خصوصيّة كل محيط، تظهر ضرورة عدم التكلم إطلاقاً بألفاظ السلام وإنما بتلك التي للحرب، وهذا ما أشار إليه السيد "سونولارت": «لا يرفض السلام، دون شك، لكنّه يتخلّى عن حب السلام الذي يعطي التوهّم بالراحة ويؤدّي إلى نسيان الحرب».

إنّ الأمير يغيّر علاقته بمأموريه من خلال التكلم بألفاظ السلام فيصبحون من ذلك النوع الذي لا يمكن الاعتماد عليهم في وقت الحرب.

وهكذا يمكن للأمير في وقت السلام أن ينسى بأن عليه ألاّ يثير كراهية مأموريه... هذا خطأ: إذا فرض عليهم الضرائب الباهظة أو سلبهم وسبى نساؤهم... فإنهم سيغدرون به عند أول فرصة مواتية، أي ما إن يجدوا سبباً للمكيدة أو للانقلاب. وعلى كل حال، لن تعوّضهم خيرات الدقيقة الأخيرة عن معاملة الأمير عندما لم يكن بحاجة لهم. وأخيراً، تطلّع "ميكافيللي" إلى اعتبار الضرورة الخاصة للأمير التي لا تتوافق دائماً مع الظروف الواجب عليه مواجهتها وهي: العمل مع ميّزته.

في الفصل التاسع عشر نقرأ أن "مارك" و"بيرتيناكس" قد تقاسموا مع "ألكساندر" التواضع وحب العدالة والعطف والإنسانية. ومع هذا عرف "مارك" حياة ونهاية سعيدة لأنّه ورث السيادة، ولأنّه كان محبوباً بسبب فضائله العديدة وهكذا لم يكن للشعب ولا للجنود فضلٌ عليه في السلطة، بينما كان "بيرتيناكس" تعيساً لأنه أصبح إمبراطوراً بعكس إرادة جنوده المعتادين

على الحياة الإباحية منذ عهد "كومود"، إضافةً إلى كونه محتقراً لتقدّمه بالسن. من خلال هذه المقارنة يشير "ميكافيللي" إلى أنَّ أحد شروط نجاح الأمير هو تصرّفه بما يُلائم محيطه وظروف فعله. وبالرغم من كل هذا فإن بعض الأمراء يتواجدون ويصلون إلى السلطة في أوقات غير مهيّئة ليتلقوا فيها النجاح حتى ولو أظهروا قدرة على التأقلم.

رفض الاستسلام وإيجاد حدود لا تُقهر: بالإضافة إلى هذين المجالين هناك ناحية ثالثة لكي نُكمل تعريف النظرة الميكافيللية لشروط فعل الأمير أي تصرّفه حيث يدعو ميكافيللي الأمير ليُظهر نفسه كحساس ومُدرك لتغير الأزمنة، كالطبيب الجيّد الذي يشخّص المرض رغم عدم وجود أعراض واضحة ومعروفة.

إنّ إعادة البناء الواردة في هذا الكتاب تتولّد من "ثورة" مُحتملة تنشأ عن انقلاب أو عدم رضى السادة أو الشعب حيث يكون التعارض بين زمن السلام وزمن الحرب في مركز هذا الطرح. فليس على الأمير فقط ألاّ يُهمل تهيئة نفسه للمحن الآتية بل عليه أيضاً أن يتصرّف بما يُلائم طبيعة الأزمنة وذلك يستوجب فقط عدم التفكير بألفاظ السلام نهائياً كما قلنا سابقاً. وإنما أيضاً تسبب الضرر عندما تستدعي الحاجة.

«معرفة الدخول بالشر» هذا حقل شائك وإحدى النواحي الأكثر صعوبة في عمل الأمير من وجهة نظر "ميكافيللي"، إلاّ أنها فعّالة كما تظهر في المثال عن "أغاتوكل" الذي عرف كيف يُثبت قسوته في بداية حكمه لذلك استطاع الاستمرار كملكٍ على صقلية دون أن يحتاج فيما بعد إلى ارتكاب أي تصرّف لا إنساني وحتّى دون أن يعاني من أي منازعات أو تشوشات داخليّة.

الدخول في الشر، التراجع عنه، التسويف والتأجيل أو المقاومة المباشرة، أو اللجوء إلى القانون أو القوّة من أجل المواجهة. بالنتيجة: القوّة كصفة

للحيـوان... أي اسـتخدام القـدرة الجـسدية كالأسـد أو المكـر والاحتيـال كالثعلب.. من خلال هذا التعاقُب صوّر "ميكافيللي" الأمير في الفصل ١٨ بيد كيد الفنان عند "دانتي"[١] مُتأرجحاً حتماً بين الإنسانية واللا إنسانية، بين الرفق والقسوة. وبهذه الصفة اكتملت الصورة الفاضحة للمفكّر بسياسة الأخلاق. وهذا يضبط علاقة الأمير بالقدر، محتاراً بين تجسيده (أي القدر) ككائنٍ يُخضع الإنسان لأهوائه أو كعجلة تجرفه في حركتها. وفي كلا الحالتين يظهر الإنسان بشكل "سلبي" أي ليس لديه المبادرة. وفي هذه الحالة يفسّر القدر ما يحدث فجأة عندما يستسلم الإنسان فلا يستخدم قواه الخاصة أو يخضع ويرضى بالبطالة والكسل. في نفس الوقت يحتِّمُ القدر على الأمير الذي يواجهه أن يعرف كيف يحلُّ لغزه.

لم يوجِّه "ميكافيللي" اهتمام الأمير فقط إلى "السلطة الروحيّة"، بل دعاه أيضاً إلى النظر في شؤون دولته، والسعي وراء الشكل في مجال المظاهر، وبالمقابل فقد دعا إلى عكس كل ذلك ؟؟!، لقد أكّد مفسّروا هذا الكتاب، انطلاقاً من الفصل ١٥ وحتّى الفصل ٢١، على التحريض الذي يجعل الأمير يعتني بنفسه بطريقةٍ ما بالرغم من طبيعته. وقبل البدء بدراسة ذلك، يبدو لنا من الضروري الإشارة إلى النصيحة التي أُسْدِيَت للأمير ليتجاوز المظاهر. وحسب ترجمة لاتينية للكتاب المقدَّس، يعلِّم هذا الكتاب، قبل كل شيء، الأمير كيف يخدع الناس فيجعلهم يرون الصورة التي تؤثِّر بهم وتجذبهم وتربطهم به وهكذا يمكنه الاستفادة منهم بتحقيق أهدافه الشخصيّة.

ولا يمكننا نسيان ذلك المقطع في الفصل السادس عشر حيث يرسم "ميكافيللي" صورةً للأمير مؤثرة بالناس: «لأن الناس بشكل عام، جاحدين...

---

(١) شاعر إيطالي له الكوميديا الإلهية.

متقلّبين... مُنافقين... شرهين للربح... جبناء أمام الأخطار....، طالما أنّك تعمل لصالحهم وتُحسن لهم، فهم بكُلّيتهم لكَ كما قلت سابقاً. لكن ما إن تدنو الصعاب وتحتاج إليهم حتّى يتحوّلون عنكَ».

إذاً، بين الناس الأمير في خطر، وهذا أمرٌ آخر يجب عليه تذكّره في أكثر الأحيان ولا يمكن التخلّص من هذا الخطر إلاّ إذا عرف الأمير كيف يعبر إلى ما وراء صورته المموّهة التي أعطاها للناس عنه. وقد بيّن "ميكافيللي" الصفة المطلوبة لهذه الغاية من خلال ثلاثة تسابيه مَبْنيِّة على الحواس:

أولاً: اللعب بالتمييز بين (رأي) و(رأي)... حيث أحدهم يكتفي بالصورة المموّهة والآخر يرى بشكلٍ أفضل وأكثر بُعداً، كالسادة، أو يرى مُسْبقاً كالطبيب الجيِّد.

ثانياً: المقارنة وبشكل مماثل بين الذي يتعرّف من خلال الشّم إلى رائحة ذكية والذي لا يشتمُّ تلك الرائحة المتعة.

ثالثاً وأخيراً: استخدم "ميكافيللي" الفرق بين حاستي النظر واللمس: من يعرف كيف يلمس يمرُّ وراء الصورة المموّهة التي تبقى خفيِّة على ذلك الذي يرى ما يُعرض أمامه فقط.

حتّى وإن كان الأمير في خطر فقد استطاع أن يخدع رعيّته عندما قابلهم بصورة مموّهة، ولكن هذه الصورة ضروريّة بالنسبة له كي يكسب ويحمي نفسه. وفي الواقع هذان الأمران الأخيران لا يكتملان إلاّ إذا تعلّق الناس به. ويقوم هذا التعلُّق على إظهار بعض الصفات التي يتأثّر بها الناس وهكذا يصنع الأمير سمعةً طيّبةً. ويَضْمن الواقع فعاليّة هذه الصور حيث قلّة من الناس هم من يستطيعون لمسه: حتى ولو كانوا جميعاً منافقين ومُتظاهرين، فلن يكون هناك بالمقابل إلاّ عددٌ قليلٌ ممن يجيدون الرؤية الصائبة.

بما أنه لا يمكن للأمير أن يمتلك كل المؤهلات المطلوبة لتأسيس سُمعة تقوده إلى الكسب ثم إلى الحفاظ على هذا الكسب، فيجب عليه نسيان ما يكون لكي يُنمّي في نفسه صورة تهدف إلى الوصول إلى تلك السمعة.

ويجب ألاّ نفهم هذا العمل على المظاهر انطلاقاً من فكرة الصورة المموّهة فقط: في الواقع، لقد دعا "ميكافيللي" الأمير إلى التفكير في تصرّفه في سبيل إظهار هذه الحالة أو تلك، دون اعتبار ما يستطيع إخفاءه، إذاً، لقد ضمَّ فعل الأمير إلى مجال المظاهر بالمعنى البصري للكلمة، المجال الذي هو الزاوية التي تُرى منها كل النقاط، يجب على الأمير ألاّ يضع نُصب عينيه إلاّ المظاهر التي تعمل على ولادة هيبته وسمعته.

إن تحديد السمعة المتناسبة مع الكسب والمناعة اللازمة يشكّلان أحَّد المجالات الأكثر توضيحاً للخاصية الجدليّة لكتاب الأمير. وقد تملَّص "ميكافيللي" بسرعة في الفصل الرابع عشر من التعارُض بين الصفات المسيحيّة أو الإنسانيّة الحسنة والصفات السيئة المتفق عليها حسب المعنى الأخلاقي الشيشروني[1] وذلك بالنظر إليها حصراً من ناحية مساهمتها في الكسب والحصانة، ومن خلال هذا الفعل بيّن "ميكافيللي" التصوّر الجوهري للبقاء، فيصبو في بعض الأحيان إلى خلق سمعة سيئة بالتقتير أي الشح وهو أضمن للمِنعَة والقوّة من سمعة الهبات الكثيرة والصرف المستمر، لأن العمل دون حذر يخفّض الموارد فيصبح من الضروري فرض ضرائب باهظة على الرعيّة في حالة الحرب عندما تفرغ الخزائن، وبالعكس فإن التقتير يسمح بتوسيع غِنى الإمارة ويساعد على تجنّب كره الرعيّة الناشئ عن فرض الضريبة الباهظة جداً. ولكن من الجهة الثانية للموضوع علينا ألاّ نقبل جميع السمعات السيئة الممكنة: إن اعتباره كأمير على جزء ضئيل من المنطقة أمر

(١) شيشرون: خطيب روماني مشهور.

خطير (الفصل ١٨)، هنا أيضاً يجب أن نعرف كيف نختار بتعقُّل بين السمعات السيئة الناتجة عن صفات تُعتبر جيدة بحد ذاتها، والأخرى الناتجة عن صفات تُعتبر سيئة. يجب أن نعرف بحكمة كيف نختار ونعاين ونتنوّع حسب الظروف. باختصار، يجب أن نأخذ بعين الاعتبار أن سمعة مكتسبة بفضل الكسب والحصانة لا تدوم فقط باستمراريّة هذا الكسب وهذه الحصانة، بل إنّها تعتمد أيضاً على الأعمال السامية والنماذج المحددة: وهذان الأمران سيُتيحان للأمير الحفاظ على مكانته وإثارة إعجاب الناس. ومع كلِّ هذه الأشياء يمكنه أن يتجاوز آثار التأسيس في العصور السابقة للدولة "ميكافيللي".

إن ناحية المظاهر هنا ذات قيمة، لأنها تسمح لنا أن نعرف كيف استطاع الأمير أن يكتسب السمعة الطيبة لسلطته بالشجاعة والصلابة والتي لها نفس أثر ذلك التأسيس السابق على الرعيّة. فتوليه أمير "في السلطة الزمنيّة" تدفعه إلى عدم الاعتماد إلاّ على قواته الخاصة وقوّات دولته. وتظهر له مسيرة الأمور من خلال المظاهر. فيما تعلّمه هذه التولية، في ذات الوقت، أن يحذر من الصور المموّهة: وهنا نتسائل: هل هدف "ميكافيللي" نفسه إخفاء تفكيره عن الورق؟ أو ليس هو ثمرة خبرته وقراءته؟ فمن وجهة نظره، فيما وراء الرغبة باستعادة المسؤوليّة تحتاج الدولة الإيطاليّة إلى هذا الكتاب: ويشير الفصل الأخير بوضوح إلى أن هذه الدولة بحاجة إلى أمير يجيد الاهتمام بجراحها وبناء دولة على أساسات متينة أي بمعنى آخر بحاجة إلى أمير يجمع في نفس الوقت بين الطبيب والمهندس المعماري وبتحديد أكبر فإن الأمير المرسوم بريشة "ميكافيللي" يحمل ملامح لا يكونها فعلاً. الأمير الصالح بالمعنى الأخلاقي للكلمة، نائب عن الله على الأرض، وهكذا... ننسى أنّه من الضروري أيضاً

النظـر إليـه بـشـكـل إيجـابي، خـصـوصـاً بـالانطـلاق مـن حقيقتـه[1] ومـن خـلال شـبـكـة مـن المقارنـات والاسـتعارات المكثفـة الـتي تقدّمـه كطبيـب يـتـكهّن بالمرض أو بالشفاء، أو تقرّبه من صورة مهندس أو بنّاء أو مؤسس للدولـة ـ أي من يوجِدَها أو يتولّى قيادتها في اللحظة التي تكون فيها مهدّمة ـ من خلال كل هذا يتشكّل بامتياز محور المديح الـ "ميكافيللي" وهذا واضح جداً في كتـاب عـام ١٥٢٠حـول الأمـور في "فلورنـسا" بعـد مـوت لـوران دي ميدتـشي الشاب:

«أعتقد أن أكبر شرف يستطيع الناس الحصول عليه، هو ذلك الشرف الذي يمنحه لهم وطنهم بملئ إرادته: أعتقد أن الخير الأكبر هو ما يُمكننا القيام به وأن المُتعة الأكبر لله هي ما نفعله لأجل وطننا، ودون ذلك لا يُكـرَّم أي إنسان بهذا القدر مهما عمل، إلاّ أولئك الذين يُنظّمون الجمهوريات والممالك بالقوانين والإنشاءات» وهكذا يمكننا الإشارة إلى أن هذا الكتاب الآنف الذكر قد وضّح استدلاليّاً هدف "ميكافيللي" من كتاب الأمير الذي نرى في فصله السادس والعشرين كيف يدعو "ميكافيللي" من خلال تمنّياته إلى إيجاد مصلح كهذا.

تسمح هذه الرؤية بالرد على مسألتين في التفسير. الأولى هي فيما يتعلّق بوضع الأمير بالنسبة للخطابات حيث يجدر هنا إعادة التأكيد إلى أنّه ليس لـ "ميكافيللي" شخصيّة سياسيّة مزدوجة، وأنَّ كتاباته حول الإمارة وفي الخطابات يتقاطعان في نفس المسألة وهي مستقبل الأمّة الفلورنسيّة ووسائل إعادة تشكيلها المدني والعسكري في ظروف صعبة معكَّرة أكثر فأكثر من قِبَل الغزوات المعادية. والانشقاقات الداخليّة وفساد المواطنين. وفي التفاتةٍ نحو الفصل الثامن عشر من الخطابات يمكن توضيح شيئاً ما، ففي هذا

---

(١) (أنظر في تقديمه، الملاحظة حول النشر الحاضر).

الفصل، قاد "ميكافيللي" ما نستطيع القول عنه خبرة الفكر السياسي: تساءل عن الأساليب التي تستطيع الأمّة العمل بها لاستعادة حريتها أو لبنائها حسبما تكون، أكثر أو أقل فساداً. إذ أنّه في وضع الفساد المستَفْحل، يجب على الأمّة أو حتّى الجمهوريّة أن تتمنى أن يظهر فيها شخص نشيط وقادر على العنف الذي يتّصف به الأمير بهدف تنظيم الأمّة من جديد وإصلاح أسباب فسادها.

انطلاقاً من هذا الفصل، يمكننا الكلام عن الفرضيّة التي قسَّم فيها "ميكافيللي" مسألة الحفاظ على الأمة: إنّه جمهوري بقدر ما يتطلّب الحفاظ على الشكل الحر للحكم، ولكن عندما يجعل مجرى الأمور المضطرب ذلك مستحيلاً، آنذاك يلتفت نحو حماية الأمّة.

في الحالة الأولى معنيان متضامنان للحريّة ـ استقلاليّة بالنسبة لمصدر السلطة والنفوذ الخارجي للأمّة، شكل جمهوري للحكم ـ، وفي الحالة الثانية، المعنيان منفصلان: يجب إنقاذ ما يمكن تحقيقه فعلاً، يعني استقلاليّة الأمّة بدلاً عن شكل الحكم. ومع الأمير نتمركز مباشرةً في الحالة الثانية للنظام دون الندم على الجمهوريّة، مع أنه يمكننا الشك فعلاً بوجود أمير يقبل الاندثار بعد إنقاذ الأمّة.

بالتأكيد، إنها مسألة غزوات وانكسارات أكثر مما هي مسألة فساد شعب وانشقاق داخلي، إلاّ أن حالة النكبة في إيطاليا التي نتجت عن هذا الفساد والانشقاق، تتطلّب نفس الإجراء: تدخل رجل وحيد وهو الأمير. يعتبر "ميكافيللي" أن رجل واحد أكثر جدارة بقيادة مشروع التأسيس وإعادة التأسيس إلى النجاح من مجموعة ورجال وذلك على قدر نشاطه وشجاعته وحزمه وبُعد نظره وحكمته.

وهكذا نجد أن كتابي الأمير والخطابات بعيدان جداً عن التعارض، بل إنهما متكاملان في التفكير بشوط وأنماط إصلاح الأمم وأشكال الحكم فيها.

إيضاح هذه الغاية من تصرّف الأمير تؤكّد رغبة "ميكافيللي" بالإقناع بضرورة هذا الكتاب. ومن ذلك نرى فيه تركيب بلاغي قائم على كتاب الاكتشاف لـ "شيشرون" وعلى الدراسة الغير مسماة التي تُعزى له، وعلى أعمال "كانتيليان" وعمل "فيرولي" ودائماً تبقى هناك خطوة لا نصرّح بها أبداً. لكن معه يمكننا بلا شك معرفة عدّة أشكال للبلاغة الرومانية ـ مثل الافتتاحية في الإهداء إلى "لوران دو ميدتشي" والوصيّة في الفصل الختامي ـ لكن ليس هناك في تتابع الفصول إلاّ بناء بلاغي تقليدي. ومن جهة أخرى، نلاحظ في دراسة بناء هذا العمل أن العلاج المُعلن عنه لا يستمر إلاّ ما بعد الفصل الحادي عشر وأنَّ النص مركّب من "كتل" مستقلّة بعضها عن بعض نسبيّاً وأنَّها مرتبطة في ذات الوقت فيما بينها بتذكيرات أو بنفس الموضوع المطروق ولكن بوجهات نظر مختلفة ومقروءة كـ "جزر مستقلّة "[(١)]:

١ ← ١٠: دراسة المساحات المختلفة للأمارة.

١١ ← ١٣: البرهنة لصالح الجيش الخاص والفن العسكري اللازم للأمير.

١٤ ← ٢٣: تحليل الصفات التي يجب على الأمير أن يُظهرها لاكتساب سمعة ملائمة للكسب والفتوحات للحفاظ على رأس الدولة.

٢٤ ←: فصل مفصلي نرى فيه تشخيص الوضع الإيطالي على ضوء التحليلات السابقة.

٢٥ ←: تحليل دور القدر في مجرى الأحداث وتحليل ما تستطيعه الفضيلة.

٢٦ ←: الدعوة لحريّة "إيطالية".

---

(١) هذا التعبير مُستعار من "فورنيل" و "زانكاريني".

ومن الواضح أن الاهتمام بهذه الرغبة بالإقناع تظهر خاصةً في صفة النص أكثر منه في بناءه الداخلي: الأمير كما قال "ستروس"[1] "نص عن النضال". بالتأكيد لا يجد الكاتب "ميكافيللي" نفسه في نفس موضع القائد البليغ الذي وصفه "فابريزيو كولونا" في كتاب أربعة في فن الحرب: أنّه لا يتوجّه إلى شعب من الجنود ليقنعهم بالذهاب إلى المعركة أو لإيقاد الشجاعة فيهم، لم يكن كذلك ولكن لم يعد بعيداً جداً عنه. هذا أيضاً ينطبق على قيامه بإقناع الأمير بالمحاربة وببعث حمّى القتال فيه.

يتوجّه الفصل ٢٦ بطريقة واضحة إلى الزعماء وليس إلى "العنصر" في إيطالية:

إنهم الزعماء، هُم من لم يلبّوا النداء وليس "العنصر" مَن هجرته الشجاعة. وبالرغم من أنَّ الدعوة إلى حريّة إيطالية مدروسة في فصل خاص، لا يجب مع ذلك أن نفصل الصوت الفعّال لتحليل شروط العمل: بالعكس، فبالاعتماد على هذا التحليل يمكن لـ "ميكافيللي" إطلاق دعوته. من وجهة النظر المتميّزة هذه، نرى أنَّ هذا التحليل ذو سمى جدليَّة: إذ أنّه كان يجيب أحياناً بعد اعتراض أو سؤال بـ "لو قالوا لي، لو سألوني، لو بيّنوا لي، كنتُ سأجيب... إلخ" وهذا يؤكد أن "ميكافيللي" يشترك بنفس الهم مع الباحثين في التاريخ والمؤرخين الإخباريين والممثلين السياسيين المعزولين، والتجار الأغنياء القلقين من مستقبل أمّتهم، لا بل مع المتدينين أيضاً مثل "سافونارول" ومع هذا لم يتماشى معهم بنفس طريقة اهتمامهم ولا بنفس أشكال خطة الإصلاح وإعادة التأسيس ـ وهذا الهم هو فهم الأحداث التي تتابعت في إيطالية مند عام ١٤٩٤ والكشف عن أسباب الهزائم وإظهار السبيل للخروج من الأزمة المدنيَّة والعسكريَّة.

---

(١) باحث في الفكر الـ "ميكافيللي".

منذ عام ١٥٢٧، تاريخ موته، اشترك "ميكافيللي" دون قصد في إفادة المناقشات الأخرى وتغذية عدة تساؤلات، ولنتمركز هنا على الاستخدامات المعاصرة كفلاسفة أو مؤرخين للأفكار أو منظّرين للسياسة... أو أيّاً تكن الأسماء التي يطلقونها على أنفسهم، فإنهم يعملون على تحليلاتهم و(نزواتهم). بدايةً تجدر الإشارة إلى إسقاط التهمة عن واحدة من استخداماته بعكس ما دعت فرضية المؤرّخ الألماني "مينوك" إلى التفكير به وهو "فكرة دواعي المصلحة العُليا (حجّة تدعيها الدولة لتبرير عمل غير قانوني غالباً) في تاريخ الأزمنة المعاصرة".

لا يمكن لـ "ميكافيللي" أن يُستشهد به كمخترع أو مفكّر أعظم لضرورة المصلحة العُليا وهذا التماثُل لا يستند فقط ولا حتّى أصلاً على أنَّ المرء لا يجد في هذا العمل تعبير نسبية الوضع الراهن الذي يمكن إيجاده في كتابات رجل قانون ومعلِّم لا هوت منذ القرن الثاني عشر والمنوّه إليه عند الكتّاب الذين ارتبطوا انطلاقاً من نهاية القرن السادس عشر بتحديد داعي المصلحة العامة وكان هذا بمثابة خصم من وجهة نظر الاعتبارات الأخلاقيّة وخاصةً لأن لديهم الحكم المرموق للموارد البشريّة والماديّة. وقد برز هدف جديد للتفكير يؤدي إلى إبعاد التفكير عن التمركز حول الحرب، وذلك في بداية القرن السابع عشر، وهو الداعي السيء للمصلحة العلُيا. المُهد لخدمة المصلحة الشخصيّة التي تضرُّ بالنفع العام. وعندما يتقابل هذان الداعيان المتناقضان، يجب تفضيل الداعي الجيّد للمصلحة العُليا المطابق للأخلاق المسيحية وحسب "سونولار" علينا أن نرى في هذا التعارض ما يشكّل دافعاً للتعاقب: من أجل توطيد النفوذ الدولي، يمكننا أن نختار إمّا الغزو أو الثبات والوقاية. وبما أن هذين الأخيرين (الثبات والوقاية) أصبحا من الضرورات العظمى للدولة، فإننا نُهمل فكرة سياسة السلطة الإمبراطورية المقترنة أيضاً بـ "ميكافيللي".

حدد "سونولار" بدوره أصل فكرة الفن في الحكم في الغرب المسيحي، وانطلاقاً من هنا يكون "ميكافيللي" شكلاً من الأشكال المدوّنة في مرحلة الانتقال والتحوّل، "بين العقيدة القديمة للباباوات، حيث حددت طريقة الحكم الحكيمة حدود النفوذ، والنظريّة المعدّة في القرن السابع عشر وأصبحت فيما بعد تابعةً لبناء النفوذ المطلق".

مع أنَّ "ميكافيللي" لم يعد يشغل نفس المكان في الأفكار حول داعي المصلحة العُليا، إلاّ أنّه حاضرٌ، في الواقع، بقوّة في المجالات الأخرى من الفكر السياسي. لكن هذا الحضور كان أولاً ودون شك يقدّمه كمؤلف لكتاب الخطابات حول العقد الأول من تيت لايف، ولهذه الموهبة مشكلتان: لقد فسح كتاب الأمير المجال للشرح الحر للتاريخ الروماني في تيت لايف وذلك بطريقة واضحة، ومن جهة أُخرى، لم تكن على صلة تامة بـ "ميكافيللي" في معظم الأوقات، أي على صلة بـ "ميكافيللي" الجمهوري. حيث ننزع إلى نسيانه كمؤلف لـ الأمير. هكذا ظهر الخلاف الذي كان بدايةً انكليزي أميريكي، بين الجمهوريين والأحرار.

وقد أدان الجمهوريون الذين كان "ميكافيللي" واحداً منهم التصوّر المتساهل للحريّة وقدرة الديمقراطية الحرّة على البقاء دون الاعتماد على المشاركة الوطنية: يجب على المواطن ليبقى حراً ألاّ يكتفي بإظهار نفسه كفاعلٍ وموضوع للحق، بل عليه أيضاً أن يبدو كعضو فعّال في الأمّة وهذا حسب رأي الجمهوريين. كما يجب عليه ألاّ يوافق على أن الحريّة غياب للمانع، بل إنها ممارسة وعمل وهنا يُستحضر "ميكافيللي" كمفكر بالفضيلة المدنيّة وبالمشاركة كشرط للحفاظ على الحريّة السياسية.

وإذا كان هناك شك عند بعض الجمهوريين بالنزعة إلى قراءة الخطابات على ضوء أنواع سياسية وقانونيّة حديثة فيجب التعرُّف في فكر "بوكوك"

على الخطوة التي تهدف إلى ربط قراءة الأمير بقراءة الخطابات، هذا من جهة، ومن الجهة الأخرى تهدف إلى تجنُّب المفارقات التاريخيّة التفيسريّة: تعبير فهناك يُنسب من وجهة نظره إلى عصرٍ، لكنّه في الواقع يُنسبُ بشكل خاص إلى مشكلة: ((إنّه اسم مُعطى إلى لحظة في الزمن المتعارَف عليه، حين تُفهم الجمهوريّة كنزاع على محدوديته الزمنيّة الخاصة، وكاجتهاد في الاستقرار الأخلاقي والسياسي في سيل من الأحداث اللامعقولة والمصاغة بشكل أساس، مثل إبادة جميع أنظمة الاستقرار المدني (أي الدنيوي البعيد عن الدين). في اللغة المُعدَّة لهذا الهدف ندعو ذلك مواجهةً بين "الميّزة" و"القدرة" و"الفساد")). ينتج عن هذه الصياغة دراسة لـ الأمير كنظريّة للإبداع وللعلاقات فيما بين القدرة والميّزة. وهي ضروريّة للتفكير في شروط الحفاظ على الجمهوريّة في الأزمنة المعاكسة أي في زمن المحن. فضلاً عن ذلك، يُفترض أن الأمير اجتاز زمن التاريخ كمشكلة بأشكال مختلفة ـ بعبارة أخرى، يعود إلى مؤرخي أفكار ماثلة كهذه، ولكن أيضاً أفكار تحديد اللغات التي يعبَّر فيها، في وسط ظروف سياسية وتاريخية مختلفة في كل مرّة.

كلما ظهرت قراءة جديدة لكتاب الخطابات الذي يركّز على بُعدٍ مهمٍ تقريباً في الخلاف بين الجمهوريين والأحرار، تسهّلُ هذه القراءة تفسير الأخلاط والصراع المدني الذي لا يُختزل الناتج عنه وذلك بهدف التفكير بالديمقراطيّة. ومع أن الديمقراطية قد ظهرت في شرح الأمير لدى "سفيز" الذي يعتمد على أعمال "ليونارد" في فكرة النزاع، فإنّها أي الديمقراطيّة ما تزال أكثر كثافةً في الشروح المستَقَاة (المستوحاة) من الفكر الماركسي. وتوضِّح تحاليل الهيكل الاجتماعي المطروحة مِن قِبل "كلود لوفور" هذا المنظور حسب الفرضيّة التي تقول: «أمَّا بالنسبة للتفكير الما بعد ماركسي فإن قوّة "ميكافيللي" ليست في اختياره للجمهورية ـ أين سيكون نشاطه

النقدي في هذه الحالة بالنسبة لـ "ماركس"؟ - وإنما في الصلة التي أقامها بين الانشقاق والإنشاء في السياسة».

إن تجزئة الأمّة المطروحة سواءً في الفصل التاسع من الأمير، أو في الفصلين الأول والرابع من الخطابات، محسّنة من قِبَل المؤلّف "عمل المؤلّف ميكافيللي"، وذلك لدعم فكرة القضايا الاجتماعيّة تحت تأثير النزاع والديمقراطيّة كدليل على التجزئة: «إنّ الديمقراطيّة تقوم على القبول والرضا أكثر ما تقوم على تصعيد التجزئة الناتجة عن القضايا الاجتماعية. إنّها شكل المجتمع هذا وطريقة التأميم هذه[١] التي تعترف بشرعيّة النزاع في كنفها، كما لو أنَّ الديمقراطيّة هي ذلك المجتمع الذي ترك مجال حر للسؤال الذي لا تتوقف القضايا الاجتماعيّة عن طرحه على نفسها، سؤال دائم عن التحوّل، مهيَّأً ليبقى على ما هو، ونوعاً ما لا متناهٍ».

فيما وراء هذا التصوّر للديمقراطيّة المطروحة من قِبَل "لوفور" عبّر "أبونسور" عن فرضيّة في وسط العصريّة وهي أن يتواجد كمصير للتفكير السياسي حيث يقود عدّة مفكرين الأفكار نحو المباعدة بين الماركسيّة و"ميكافيللي". «كما لو أنَّ ما بُحث عنه منذ زمن طويل عند "ماركس" قد اكتُشِفَ فجأةً في كتاب الأمير». وقد استعار "بوكوك" ذاته تعبير "لحظة ميكافيللية" ليطرحها بمعنى جديد في التفكير، وذلك بدافع قوّة مستوحاة من الحريّة التي تعاكس الأخلاط. وهكذا، ربما يُعتقد مع "ميكافيللي" أنَّ الديمقراطيّة ضد الدولة.

التسلسل المطروح من "نيكري" بين "سبينوز" و"ميكافيللي" و"ماركس" ومهما يكن الشكل المصاغ به فإنّه يشترك بهذا الإسقاط: في الواقع، لقد أثبت أنّه يجب التفكير بالديمقراطيّة كاكتشاف دائم، بمعزل عن وجهة

(١) كل تعريف بألفاظ النظام السياسي لا يُعتبر كافياً.

النظر الدستوريّة والقانونيّة وذلك بهدف الحريّة التي تتغذّى من الاستحقاقات وصراعات الأكثرية (الشعب) ضد النظام القائم.

ومع ذلك لا يسيطر كتاب الخطابات دون اقتسام مجال الاستخدامات الميكافيللية على من يريد تحديد الحدث السياسي وشروطه وذلك لأن كتاب الأمير يبقى في الواقع، بشكل جازم، ومن خلال أعمال مؤلّفه يمكن تصوّر الإجراءات التي يتبعها في الطوارئ والمجازفات والأمور الغير متوقّعة، وأيضاً يمكن تصوّر غرابته، وأخيراً خصوصيتّه بالنسبة لنشاطات الناس في الحقل الاجتماعي الاقتصادي. ويعود الفضل في اكتشاف هذا الطريق إلى "ميرلوبونتي " و"أروندت" و"ليفورت". وبعكس الحتميّة التاريخيّة... إنها لبراعةٌ تاريخيّة أخرى أن يظهر "ميرلوبونتي" وأن يتصوّر "أروندت" السياسة كفن الممكن: ومثل هذه البراعة يمكنها مقاومة المجازفات وخطر التجاوز، لأنها ترفض الاستسلام. وعند "كلود ليفورت" رفضت أيضاً الحكم الأخلاقي للفعل السياسي أو النزعة لتفسيره حسب حوافزه المُفتَرَضة أو المزوّرة. بالنسبة لهؤلاء الثلاثة لكي يكون المرء مفهوماً يجب أن يتمركز الفعل السياسي في مجال الرؤية وأن يُعتبر كشيء نادر الظهور، وبناءً على هذه الفكرة، يعود "سقراط" المفكّر السياسي المتميّز إلى "ميكافيللي" لكونه فاعلاً سياسياً حقيقياً.

وأخيراً... إنّها تقوم على استحالة اختزال التنظيم الاجتماعي والاقتصادي للمجتمع البشري: فيما وراء الإلهام الأرسطوطاليسي[١] الواضح، تتحقق هذه الفرضيّة في تحليل الفعل السياسي، ويقود إليها بطريقة علميّة قراءته لـ "ميكافيللي".

لا شك في أن الاستخدامات الأخرى لـ الأمير والأعمال الأخرى "لميكافيللي"، المنظورة بمجموعها أو بجزء منها، ستظهر إلى النور.

---

(١) مثالي حسب مذهب أرسطو.

لماذا نقرأ الكلاسيكيين؟ هذا ما طرحه "ميكافيللي" على نفسه. ومن بين التعاريف الأربعة عشرة التي طرحها إيتالوكالفينو للكلاسيكيّة: «[٦] الكلاسيك هو الكتاب الذي لم يُنهي فيه ما لديه ليقوله [٨] الكلاسيك هو العمل الذي يحرّض دون توقّف غيمة من النقاشات الإنتقاديّة التي يتخلّص منها باستمرار [١٠] يدعو كلاسيك الكتاب الذي على غرار الطلاسم القديمة، يظهر كتوازن للعالم [١٣] كل ما يميل إلى إبعاد الحاليّة بمستوى شائعة وفي العمق ندعوه كلاسيك ولولا هذا لانطفأت هذه الشائعة [١٤] يكون كلاسيكاً ما يستمر كشائعة في العمق إلى حيث تكوم المعصرة في الحكم الأبعد عن كونه سيد وقائد.

تحيّة من "نيكولا ميكافيللي" إلى فخامة "لوران دي ميدتشي"[1] الشاب.

اعتاد الذين يريدون كسب ودِّ أحد الأمراء، على أن يتقدَّموا إليه غالباً مع الأشياء الأغلى على قلوبهم أو التي تمنح الأمير متعة كبيرة، فيهدونه الجياد والخيول والأسلحة أو الأقمشة المذهّبة والأحجار الكريمة وما شابهه من الحُلي التي تليق بعظمته. لذلك: عندما أردتُ أن أقدّم لفخامتكم دليلاً على إخلاصي، لم أجد في عتادي ما أحبّه وأقدّره أكثر من المعرفة بأعمال الرجال العظماء التي اكتسبتها بخبرتي الطويلة بالأمور الحديثة[2] وبالإطلاع المستمر على كل ما هو قديم ثم بعد أن جمعتها بعناية كبيرة ودرستها وتفحصّتها طويلاً، اختصرتها في كتاب صغير لأجعله هديتي لفخامتكم وإن كان هذا الإنتاج غير جدير بالمثول أمامكم، فإنني واثقٌ مع ذلك بأنّه سيُقبَل ويُرحب به لأنني أعرف مدى عطفكم وإنسانيتكم، ولأنكم تعرفون أنني لا

---

(١) لوران دي ميدتشي (١٤٩٢ – ١٥١٩) ابن "بيتر دو ميدتشي، وصل إلى السلطة بعد عمّه "ليون العاشر" بدأً من ربيع عام ١٥١٣.

بالنسبة للإهداء، من الممكن أن يكون قد كُتب بعد الكرّاس، وأن يكوم موجهاً في البدء إلى جوليان دو ميدتشي (رسالة ١٠ كانون الثاني ١٥١٣).

(٢) ـ "ميكافيللي" (١٤٦٩ – ١٥٢٧): بقي في خدمة الجمهوريّة الفلورنسيّة منذ عام ١٤٩٨ إلى عام ١٥١٢، بدايةً كسكرتير في القنصليّة الثانية ثم كمستشار مقرّب لـ "بيير سودوريني" ومن خلال السفر والمعاينة والملاحظة، اكتسب خبرةً واسعةً دبلوماسياً وعسكرياً وسياسياً وكتب آلاف الرسائل والتحليلات التي لم يصل إلينا إلاّ بعضها.

أستطيع تقديم هديّة أعظم أو أهـم أو أثمـن مـن القـدرة علـى الحـصول في وقـت وجيز جداً على كل ما اكتسبته خلال سنوات من الأسرار والمحن والمخاطر.

لم أزيّن هذا الإنتاج أو أثقله ببنود واسعة أو بكلمات متكلّفة وعظيمـة أو ببعض المظـاهر والزينـات الخارجيّـة الـتي اعتـاد عليهـا الكـثيرون عنـد وصـف وتـزيين أشـيائهم الخاصـة. وذلـك لأنـني أردت لـهُ إمـا التكـريم بحقيقـة مادتـه وأهمّيـة موضـوعه فقـط، أو الإهمـال، ولا أريـده أن يُنـسب بالحـدس إلى رجـلٍ سافلٍ ذو هدفٍ تافهٍ، لأنّه تجرّأ علـى أن يُحـاول أن يختـصر حكومـات الأمـراء إلى مجموعة من القوانين.

في الواقـع، كمـا يتوضَّـع في الـسهل مـن يريـد رسـم الـبلاد ليـتمكن مـن الإحاطة بطبيعة الجبال والأماكن المرتفعة الأخرى، بينما يتوضّع في المرتفعات وعلى الجبال للإلمام بالأماكن المنخفضة كذلك يجب أن تكـون أمـيراً لمعرفـة طبيعـة الـشعب بـشكل جيـد، وأن تكـون مـن الـشعب لمعرفـة طبيعـة الأمـراء بشكل جيد.

وبناءً عليه، أرجو أن يتقبَّل سيدي هذا الإنتـاج الـضعيف بـنفس الـروح الـتي أُرسِلُهُ[١] له به وإذا أعتُبر بعناية وقُرأ من فخامتكم، فسوف تعرف فيـه رغـبتي الـشديدة بـأن تتوصّـلوا إلى تلـك العظمـى الـتي يعـدُ بهـا القـدر، وإلى تلـك الخصائص والصفات الأخرى.

وإذا إلتفت فخامتكم من قمّة علياءهـا إلى هـذه الأمـاكن المنخفـضة ذات مرّةٍ، فإنها ستعرف مقدار معاناتي وكم أحتمل دون وجه حق، من لؤم مستمرٍ وكبيرٍ للقدر[٢].

---

(١) حـسب "مـارتولي" هنـا "ميكـافيللي" لا يـدعو "لـوران دو ميدتـشي" ليكـون في نفـس حالـة روح "ميكافيللي"، لكنه يدعوه لقبول هذا النتاج كهديّةٍ معتبراً أن الفكرة تقدّم مع هذه الهدية أي فيها.

(٢) هنا يشير "ميكافيللي" إلى وضعه: فقير، عاطل عن العمل وبعيداً عن الأمّة الفلورنسية.

- ١ -

أنواع الولايات وبأي الوسائل تُكْتسب؟

إنَّ جميع الدول والمقاطعات التي ملكت، وتملكُ السلطة على الرجال، هي إمّا جمهوريّات أو ولايات.

الولايات: إمّا أن تكون مُتَوارثة، أي أنَّ سيّدها ينحدر من سلالةٍ عريقة من الأمراء أي أنّه أميرٌ أبّاً عن جد، أو أن تكون جديدةً.

والجديدة منها إمّا أن تكون جديدةً تماماً كما كانت "ميلان" بين يدي "فرانسيسكو سفورزا"، أو أن تكون جزءاً مُضافاً إلى الدولة المتوارثة مثل "نابولي" بين يدي ملك أسبانية.

هذه المقاطعة المُكتسبة، بدورها، إمّا أن تكون مُعتادةً على العيش تحت إمرة أمير، أو أنّها معتادة على الحريّة. وتُكتسب هذه المقاطعة بالأسلحة الخاصة أو بأسلحة الآخرين، أو بالقدر والصدفة أو بالفضيلة والامتياز.

-٢-

ولايات متوارثة

سأضع جانباً التفكير بالجمهوريات لأنني فكّرت بها طويلاً فيما مضى. وسألتفتُ الآن نحو الولايات فقط لأعيد نسج المجريات الآنفة الذكر وأناقش كيف تستطيع هذه الولايات أن تسيطر وتحكم وتحافظ على كيانها.

لقد قلتُ سابقاً أنّ الصعوبات التي تواجهها الدول المتوارثة والمعتادة على سلالة أميرها، أقلُّ بكثير من تلك التي تقف في طريق الدول الجديدة. لأنّه في هذه الأولى يكفي الأمير ألاّ يتجاوز ترتيبات وأنظمة أسلافه وأن يتمهَّل ويتصرّف بما يلائم الأحداث، حتّى يبقى على عرشه دائماً حتّى ولو كان ذا مرونةٍ متوسطة... ولكن بشرط ألاّ يكون هناك قوة غير عاديّة ولا متوقّعة تحرمه من هذا العرش. وإذا حدث ذات مرّة وحُرم منه فإنّه سيسترجعه من جديد ما إن يواجه هذا المحتل محنة ما.

نحن في "إيطاليا" مثلاً، لدينا الدوق "فيراري" الذي لم يستطع الصمود في وجه هجمات الزاحفين من البندقيّة في عام ١٤٨٤، وهجمات البابا "يوليوس" في عام ١٥١٠ فقام بتقديم سلطته، وهو الآن سبب هذه الضعف في التصدّي للغرباء.

وبما أنّه لدى الأمير بالوراثة أسباب أقل لإلحاق الضرر والإهانة، فإنّه محبوبٌ أكثر من الأمير الجديد. على الأقل لا تجعله ولا حتّى أشدّ العيوب مكروهاً. إذاً العقل يريد أن يكون الأمير طبيعياً أي بالوراثة ومُحترماً بعطف من شعبه، بعد أن يكون الزمان قد محى من الذاكرة أسباب الانقلاب. لأنّ هناك دائماً تغيير ما يترك دعامةً من أجل بناءٍ جديد للأجيال القادمة.

- ٣ -

ولاياتٌ مُشْتركة

لكـن في الولايـة الجديـدة[1]، تكمـن الـصعوبة في الدرجـة الأولى في التغييرات التي تتولّد بدايةً من الصعوبة الطبيعيـة الـتي توجد في كل الولايات الجديدة، وتكمن في أنَّ الرجال يغيّرون الرئيس إرادياً معتقدين بأنّهم يتجهون بذلك نحو الأفضل فيجعلهم هذا الاعتقاد يحملون السلاح في وجه الرئيس الحالي. وهذا ما يخدعهم، لأنهم سيرون في ما بعد ومن خلال التجربة أنهم قد توجهوا نحو الأسوأ. وهذا يرتبط بضرورة أخرى طبيعية ومألوفة وهي أنّه يجب دائماً على الأمير الجديد أن يستخدم العنف مع رعاياه، وذلك إمَّا عن طريق رجـال مـسلّحين أو بـضغوط أخـرى لا مُتناهيـة جـاءت كنتيجـة طبيعيَّـة للمكاسب الجديدة.

بهذه الطريقة التي تستخدمها لمعاداة أولائك الذين استخدمت العنف معهم باحتلالك لإمارتهم أو الذين لم تستطع الاحتفاظ بصداقتهم، أي أولئك الذين أيّدوك. لكنك لم تكافئهم بالطريقة المفترضة ولا حتّى استخدمت ضدّهم علاجات قويّة وفعّالة قادرة على إجبارهم، فإنك ستصل إلى ذات النتيجة وهي: حتّى إن كان هناك مَن يستطيع استخدام أسلحة قويّة جداً، فإنّه بحاجة دائماً إلى تأييد سكان الولاية ليدخل إليها. لهذه الأسباب استطاع "لويس الثاني عشر" ملك فرنسا احتلال "ميلان" في لمح البصر ولكنّه فقدها بنفس سرعة احتلالها. في المرّة الأولى... كانت قوّات "لودوفيك" الخاصة

---

(١) إن لم تكن هذه الولايات جديدة بشكل كلّي، فإنّها عضو في الدولة نستطيع تقريباً أن ندعوها بكلّيتها "ولاية مشتركة".

كافية لاستخلاص "ميلان" لأن سكّانها فتحوا له الأبواب. ولكن هؤلاء السكّان ذاتهم عرفوا بعد فترة أنَّهم كانوا مُخطئين في رأيهم وفيما يتعلّق بالمستقبل المُزهر الذي افترضوه سلفاً. ولم يعودوا قادرين على احتمال إزعاجات الأمير الجديد. إنَّ هذه حقيقة واضحة فعندما تُستعاد البلاد التي ثارت مرّة أخرى، يُصبح فقدانها صعباً جداً. لأن الأمير الذي يستفيد من الفرصة المتاحة عن طريق التمرّد يكون أقلُّ حُذقاً وحذراً. ويهدف إلى تأكيد سلطانه، فيعاقِبْ المذنبين، ويكشف عن المشبوهين ويعالج أجزاء الدولة الأكثر ضعفاً. وبناءً عليه: لكي تفقد "فرنسا" ميلان كان يكفي في المرّة الأولى أن يثير دوق "لودوفيك" المناوشات على الحدود، أمّا في المرة الثانية فقد توجّب على كل العالم أن يتحالفا لكي يواجه فرنسا وأن تُدمّر جيوشها وتطرد من "إيطاليا". هذا ما أشارت إليه الأسباب الآنفة الذكر.

إلاّ أنّه في كلا المرتين قد انتُزعت منها. وقد ناقشنا الأسباب العامة للمرّة الأولى وبقي الآن أن يملكها من سيكون في وضعها، لكي يُحافظ على نفسه من الدول المُكتسبة بشكل أفضل مما كانت عليه "فرنسا".

إنَّ هذه الدول التي تنضمُّ بالاحتلال إلى دولة قديمة وتنتمي إلى تلك التي احتلتها، إمَّا أن تكون من نفس المقاطعة ونفس اللغة، أو لا تكونه، عندما تكون كذلك... يكون من السهل جداً الاحتفاظ بها خاصةً عندما لا يكون سكّانها معتادين على العيش أحراراً، ولكي نملكها باستقرار ورسوخ تام يكفي أن نُبيد سلالة الأمير الحالي لأنّه يحتفظ بالشروط القديمة في الأمور الأخرى ولأن العادات ليست مُختلفة والناس يعيشون بهدوء. ولنأخذ مثال على ذلك "بورجينا" و"بريطانيا" و"جوسكونيا" و"نورمانديا" الذين اتّحدوا من خلال خضوعهم جميعاً لـ "فرنسا" منذ وقت طويل.

وبالرغم من وجود بعض الاختلافات في اللغة، إلاّ أنَّ العادات كانت متشابهة وتمكّنوا من الانسجام فيما بينهم بسهولة.

في الواقع، على المُحتل أن يراعي أمرين ليحتفظ بما احتلّه: الأول هو إبادة سلالة الأمير السابق، والثاني ألاّ يغيِّر القوانين ولا الضرائب وهكذا... تصبح هذه المقاطعة الجديدة بُنية واحدة مع القديمة.

ولكن عندما نكتسب (نحتل) مقاطعات مختلفة في اللغة، تشكّل العادات والأنظمة صعوبة فائقة. وهنا يجب أن تتوفّر ثروة طائلة ومرونة كبيرة لاحتلال هذه الدول.

ومن أكبر وأسرع الأساليب هي أن يتوجّه من يريد احتلالها إليها ويُقيم فيها. هذا سيجعل هذه المُلكيّة أكثر ثباتاً واستمراريّة، كما فعل "الأتراك" بالنسبة "لليونان"... فبالرغم من جميع التدابير التي اتخذتها تُركيّة من أجل الحصول على هذه الدولة، لم تستطع الاحتفاظ بها لولا إقامتها فيها. ولأن التواجد في الأراضي التي نحتلها يجعلنا نرى ولادة الفوضى وبالتالي نستطيع السيطرة عليها بسرعة، بينما إذا لم نتواجد فيها فإننا لن نُدرك الأمر إلاّ عندما يكبُر ويُصبح غير قابل للعلاج... إضافةً إلى أنَّ المقاطعة لا تُنهب من موظفيّها، وأنّ الرعيّة يجدون الراحة باللجوء إلى الأمير. وهكذا، لديهم أكثر من سبب ليحبوه عندما يريدون أن يكونوا مُرتاحين، وليخشوه عندما يريدون أن يختاروا طريقاً آخر. ومَنْ يريد مِن الغرباء اقتحام هذه الدولة يحذَرُ كثيراً. ويصعب بالإجماع انتزاعها من الأمير الذي يقيم فيها.

وهناك أسلوب آخر للعلاج من بين أفضل الأساليب وهو: إقامة مستعمرات في مكان أو مكانين لتكون كالسلاسل التي تقييد هذه الدولة، لأنّه من الضروري إمّا فعلُ ذلك أو المحافظة في هذه الدولة على عدد كافٍ من الرجال المسلحين والمشاة. بوجود المستعمرات... لا نُنفِق الكثير، إمّا لا شيء أو بقليل

من المصاريف نُرسلُ هذه المستعمرات ويُستحوذُ على الدولة. وسكان هذه المستعمرات لا يسيؤون إلاّ لأولئك الذين يأخذون منهم الحقول والمنازل ليسكنوا فيها وهم يشكلون جزء صغير جداً من الدولة ولكنّهم يبقون متفرقين وفقراء بعد أن سُلِبت منازلهم وهكذا لا يمكنهم إيذائهم أبداً.

أمّا ما تبقى من الشعب فإنَّهم يبقون من جهة في مأمن من الإساءة وللحفاظ على هذا الوضع يتوجّب عليهم البقاء هادئين، ومن جهة أخرى... يبقون خائفين من فكرة ارتكاب الخطأ خشية أن نحدث لهم ما حدث لأولئك الذين اغتُصبوا.

وأختتم قولي بأنَّ هؤلاء المهاجرين إلى المستعمرات لا يكلّفون شيئاً وأنهم أكثر إخلاصاً، وأقل إساءة للغير ولا يمكن للسكان المتضررين أن يدمروهم. لأن هؤلاء الأخيرين فقراء ومفرقين كما قلنا.

ومن هنا... فإنّه على الرجال إمّا أن يلاطفوا أو أن يُدمِّروا. لأنه لا يُنْتَقم إلاّ من الإهانات البسيطة. بينما يقف المرء مكتوف الأيدي أمام الإهانة الكبيرة والخطيرة لعدم قدرته على مواجهتها. لذلك يجب أن تكون الإهانة الموجّهة للشخص من النوع الذي لا يُخشى معه الانتقام.

لقد رأينا أن هذه المستعمرات لا تكلّف شيئاً، ولكن إذا استُبدل الناس الذين في المستعمرات بأناس حرب، فإنَّ ذلك يتطلّب الكثير الكثير من المال وسيُنفق الأمير على ذلك كل إيرادات الدولة. وهكذا يتحوّل الربح إلى خسارة. ويلحق الضرر بالسكان أيضاً لأن تبديل إقامة الجنود بين هنا وهناك يسبب الإزعاج والشرر للجميع فيصبح كل فرد منهم عدواً للأمير... فيقاتلونه بكل طبقاتهم. في الواقع إنهم الأعداء القادرين على تدميره لأنهم يبقون في بيتهم ولا يهجّرون منها كما يحدث في المستعمرات. وهكذا نرى أن هذه الحراسة من كل جوانبها غير مُجدية تماماً بقدر جدوى حراسة المستعمرات.

وكما قُلنا سابقاً، فعلى من يتواجد في مقاطعة مُختلفة، أن يُصبح الرئيس والمدافع ضد الجيران الأقل قوّة، وأن يعمل على إضعاف قوّة رعاياه الأقوياء، وأن يحمي نفسه بكل الوسائل من أيّة حادثة تتيح فرصة أمام أجنبي بنفس قوّته للدخول إلى البلاد. لأن ما ينتج عن هذا دائماً هو أن يُصبح هذا الغريب الملجأ للمستائين بدافع طموحهم الزائد أو بدافع الخوف. ولنأخذ مثالاً على ذلك "الايتوليين" الذين أدخلوا الرومان إلى بلاد اليونان.

إنَّ ما يحدث هو أنّه بدخول هذا الأجنبي ذو السلطة إلى المقاطعة ما يلبث أن يتعلّق به كلّ ضعيفوا النفوذ فيها، ويؤكدون بكامل إرادتهم أنّه أكثر قوّةً وسلطاناً منهم. وهكذا لا يجد هذا الأجنبي أيّة صعوبة في كسبهم إلى صفّه لأنّهم يتجمّعون من جديد وبسرعة حول الدولة التي احتلها. وهنا يجدرُ بهذا الدخيل ألاّ يمنحهم الكثير من القوّة والسلطة، وأن يكون قادراً دائماً بفضل قوته من جهة ومحبتهم من جهة أخرى، على انتزاع السلطة من أصحابها بسهولة، ليبقى هو السيد المطلق على هذه المقاطعة.

وبالنسبة لمن لا يستطيع تسيير الأمور بشكل جيد في هذا المجال، فإنّه سيفقد بسرعة كل ما كسبه، وسيصادف طوال فترة حكمه صعوبات وإزعاجات لا نهاية لها.

حافظ "الرومان" في المقاطعات التي احتلّوها، على قوانين هذه المقاطعات، وأرسلوا المهاجرين ليقيموا هناك في مستعمرات وتمتين علاقتهم بأصحاب السلطة الضعيفة دون أن يزيدوا لهم هذه السلطة، كما عملوا على إضعاف الأقوياء وأصحاب النفوذ ولم يتركوا أي مجال لسلطة أجنبية باكتساب سُمعة طيبة.

ولنأخذ كمثال آخر المقاطعة الوحيدة "لليونانيين" حيث قوّوا علاقتهم "بالآشوريين" و"الإيتوليين" وأضعفوا مملكة "المقدونيين"، وطردوا

"الأنتيوشوس"، ولم يسمحوا للآشوريين والإيتوليين أبداً بتوسيع أراضيهم برغم اتحادهم ومميّزاتهم، ولم تنفع حجج وبراهين "فيليب" وكسب صداقة "روما" دون إخضاعه. كما لم تستطع سلطة "الأنتيوشوس"، جعلهم يقيمون في هذه المقاطعة لأن الرومانيين قاموا في هذه الحالات بما يجب على كل أمير حكيم أن يقوم به: يجب على هؤلاء أن يحطاطوا ليس فقط من المخاطر الحاضرة، وإنما من المستقبليّة أيضاً، وأن يتصدّوا لهذه المخاطر لكل الوسائل. لأنّه إذا توقّعنا السوء مُسبقاً يمكننا علاجه بسهولة. ولكن إذا انتظرنا ليقترب أكثر فإن الطبيب لن يجد الوقت الكافي.. فقد أصبح المريض غير قابل للشفاء أي من ذلك النوع الذي يقول عنه الأطباء مسلولاً (أي مصاب بالسل): في بداية المرض يكون من الصعب التّعرف عليه ولكن علاجه يكون سهلاً. ومع مرور الوقت إذا بقي هذا المريض دون اكتشاف وعلاج يصبح من السهل التعرّف عليه ومن الصعب علاجه والشفاء منه. وهذا بالضبط ما يحدث في أمور الدولة حيث بالتعرّف عن بُعدٍ على الأضرار والأخطار التي تتولد فيها، يصبحُ من السهل علاجها والشفاء منها بسرعة، وهذا لا يتوصّل إليه إلاّ رجلٌ حكيمٌ متبصّر. ولكن عندما تتسع وتزداد، لأنّه لم يتمَ التعرف عليها مبكّراً، وتصبحُ واضحةً لكل شخص، ولكن لا يعود هناك، للأسف، مجال للعلاج.

ولهذا عندما رأى الرومانيون الأضرار من بعيد عالجوها في الحال ولم يتركوا لها وقتاً لتنمو أكثر وتولّد حرباً، فهم يعرفون بأنّه لا يمكن تجنّب الحرب لكن يمكن تأجيلها لمصلحة الآخرين. لذلك أرادوا أن يشنّوا الحرب على "فيليب" و" أنتيرشوس" في "اليونان" لكي لا يحاربوهم في "إيطاليا". إذاً كان بإمكانهم تجنّب الحرب الأولى والأخرى ولكنهم لم يريدوا ذلك. ولم يطبّقوا ما يقوله حكماء عصرنا يوميّاً: «دع الفرصة للوقت حتّى يعمل لأجلنا» وإنما طبقوا ما تقوله فضيلتهم وحكمتهم بأنّه إذا تركنا الأمور للزمن

فيمكن أن يجلب أي شيء. فمن الممكن أن يجلب معه الخير كالشر والشر كالخير[1].

والآن لنوجِّه أنظارنا نحو "فرنسا" ونرى إن كانت قد قامت بشيء من الأمور الآنفة الذكر، وهنا سأتحدث عن "لويس" وليس عن "شارل" إذ أنّه باحتلاله لأراضي "إيطاليا" قام بتصرّفٍ واضحٍ وجلي، بالرغم من أنَّ ما قام به يعاكس ما كان ينبغي أن يقوم به في سبيل امتلاك مقاطعة تختلف عن دولته.

لقد دخل الملك "لويس" إلى "إيطاليا" عن طريق أهل "البندقية" الذين أرادوا الحصول على نصف "لومبارديا" بمجيئه. ولا أريد أن ألوم الملك على هذا التّصرّف، فمع أنّه ليس لديه أيّة صداقة، ومع أنّه كان يتمنّى أن يكون له موطئ قدم في "إيطاليا"، فقد أغلقت أعمال الملك شارك في وجهه جميع الأبواب. وهكذا اضطر إلى إقامة صداقات بقدر ما يستطيع. وكان هذا الأمر سيأتي عليه بالخير لولا ارتكابه خطأً في مناوراته الأخرى

وهكذا استطاع الملك استعادة "لومبارديا" والسمعة التي كان قد أفقده إيّاها "شارل". ولما توجّه "جين" مدَّ له أهل "فلورنسا" يد العون، كما حضر لاستقباله بالترحاب كل من المركيز "مانتو" والدوق "فيراري" من "بولونيا"، والكونتيسة "فورلي" والسادة قادة "فينزا" و"بيسار" و"يميني" ليصبح كلاً منهم صديقه.

أمّا أهل البندقية الذين كانوا يتطلعون إلى اكتساب مدينتين في "اومبارديا"، فقد جعلوا الملك سيّداً على ثلثي "إيطاليا" وفي هذه اللحظة اكتشفوا أخيراً مدى تهوّر قرارهم الذي اتخذوه.

يخطر الآن لكل شخص، بعد هذا الشرح، أنّه بالقليل جداً من الصعوبات

---

١ ـ هنا "ميكافيللي" ينتقد إحدى الولايات العظيمة في السياسة الخارجية الفلورنسية، عندما كان سكرتيراً في القنصلية.

يمكن للملك في "إيطاليا" أن يحافظ على هيبته. كل ما يجب عليه هو إتباع القواعد المكتوبة أعلاه وحفظ استقرار وأمن كل أصدقائه سواءً أكانوا من الكنيسة أو من أهل البندقيّة، والعمل على زيادة عددهم وإبقائهم خائفين وضعفاء ليظلّوا دائماً بحاجة له ولحمايته، وليستطيع بسهولة أن يأمن ممن بقي ذو سلطة ونفوذ.

وفي الواقع، ما إن وصل الملك إلى "ميلان" حتّى كان العكس. فقد قام بمساعدة البابا "ألكسندر" ليحتل "رومانيا" دون أن يلحظ أنّه كان يضعف ذاته بهذا القرار لأنّه يُبعدُ أصدقائه وأولئك الذين ارتموا في أحضانه. والأسوأ من ذلك أنّه قد كبَّر الكنيسة مضيفاً إلى السلطة الرّوحيّة التي أعطته الكثير من السيطرة سلطة زمنيّة، وأول خطأ ارتكبه هو أنّه كان مُرغماً على المتابعة لوضع حد لطموح "ألكسندر" حتّى يتوصل إلى سيادة "توكسانا" وقد كان مُجبراً على ذلك لدرجة أنّه اضطر للمجيء إلى "إيطاليا" ولم يكفيه ما قام به من تعظيم لشأن الكنيسة وإبعاد الأصدقاء عنه، بل قام باقتسام مملكة "نابولي" مع ملك "إسبانيا" لأنّه أرادها له. وبما أنّه بالأصل السيد المطلق الأول في "إيطاليا"، فقد وضع فيها شريكاً له... فأصبح هذا الشريك الملاذ والعون لذوي الأطماع والمستائين في هذه المقاطعة، ففي حين كان يمكنه أن يترك في هذه المملكة ملكاً يكون عوناً وتابعاً له، قام باستدعاء من تمكّن من طرده منها. إنّه لأمر طبيعي جداً ومألوف.. أن يرغب المرء بامتلاك شيئاً ما، فعندما يقوم الرجال القادرون وذوي السلطة بهذا الامتلاك يُمتدحون ولا يُلامون، بينما يقع اللوم والخطأ على من يرغبون بعمل ذلك بكل الوسائل ولكنهم لا يستطيعون.

إذاً... إذا كانت "فرنسا" تستطيع مهاجمة "نابولي" واحتلالها بقوّاتها فلتقوم بذلك، وإذا كانت لا تستطيع فعليها ألاّ تقتسمها. وإذا كان اقتسام "لومبارديا" الذي قامت به مع أهل البندقيّة يستحق أن ينفّذ لكي تضع قدمها

في "إيطاليا"، فإنَّ هذا يستحق اللوم لأنّه لا ينطلق من نفس الضرورة.

وهكذا نرى أنَّ الملك "لويس" قد ارتكب خمس أخطاء: ـ دمّر الأقل قدرةً... وزاد سلطة القوي... ووضعَ في إيطاليا أجنبي ذو قدرة كبيرة... ولم يأتي هو للعيش فيها... ولم يقيم فيها مستعمرات. ومع ذلك كان من الممكن ألاّ تلحق هذه الأخطاء به الضرر لولا أنّه أرتكب السادس بانتزاعه من أهل البندقيّة دولتهم، لأنّه لو لم يكن قد جعل الكنيسة قويّة ولم يُدخل "إسبانيا" في "إيطاليا".. لكان من المناسب للعقل ومن الضروري إخضاعهم.. ولكن بقيامه بهذين العملين لم يعد يرضى أبداً بتدميرهم، لأنّ هؤلاء وبكونهم قادرين فقد احتفظوا دائماً بالآخرين بعيداً عن مشروع "لومبارديا". فضلاً عن ذلك، فإنَّ أهل "البندقيّة" لم يوافقوا أبداً على أن يُصبحوا السادة فيها، لأن الآخرون لم يكونوا يريدون انتزاعها من "فرنسا" ليعطوها لأهلها. ولم تكن لديهم قوّة في التفكير كافية لمهاجمتهما كلاهما وإذا قال أحد: «تنازل الملك لويس عن "رومانيا" لألكسندر، وعن مملكة نابولي لإسبانيا ليتجنّب الحرب»[1]، أجيبه انطلاقاً من الأسباب الآنفة الذكر بأنّه لا يجب السماح أبداً بأن تقوم فوضى لكي نتجنّب الحرب، لأننا بهذا الشكل لا نتجنّبها في ضررها.

وإذا تعلل الآخرون بوعود الملك التي كان قد أعطاها للبابا، بالاستفادة من هذا الاحتلال، وذلك بهدف مقاومة زواج البابا ومنصب رئيس الأساقفة "روين"[2]،.. سأجيب بما سأقوله لاحقاً فيما يتعلّق بوعود الأمراء وكيف يجب عليهم الوفاء بها.

---

(١) هنا يتحدث عن حرب ضد "ماكسيميليان الأول" (١٤٥٩ – ١٥١٩) إمبراطور السلطة المقدّسة (عاصمتها فيينا).

(٢) ـ "لويس الثاني عشر" كان يتمنّى لو ينفصل عن "جون" لكي يعود ويتزوج مرّة أخرى من "آنّه" البريطانية أرملة "شارل الثامن": "جورج دامبواز" (١٤٦٠ – ١٥١٠) رئيس أساقفة "روين"، ومُرشد في سياسة "لويس الثاني عشر"، وفي عام (١٤٩٨) أصبح كاردينال.

إذاً لقد أضاع الملك "لويس" "لومبارديا" لأنّه لم يراع أي مبدأ من المبادئ المراعاة مِن قِبل أولئك الذين أخذوا مقاطعات وأرادوا الاحتفاظ بها. وليس هناك ما يُدهش فكل شيء مألوف ويسير حسب المنطق.

تحدّثت ذات مرّة مع "نانتي" رئيس أساقفة "روين" عن هذا الموضوع، وذلك عندما كان "الفالنتيني"[٣] يحتل "رومانيا"، وقد أجبته على قوله أن الإيطاليين لا يفهمون شيئاً في الحرب بأن الفرنسيين لا يفهمون شيئاً في الدولة، وبأنّه لو كانوا يفهمون شيئاً بها لما تركوها تصل إلى هذه العَظَمَة والقوّة[٤]، ومن خلال الخبرة والتجربة... نرى أنَّ كلاً من سلطة الكنيسة وسلطة "إسبانيا" في "إيطاليا" كانت من صنع "فرنسا" التي لم تصنع في الواقع إلاّ دمارها. ومن هنا نستنتج قاعدة عامة لا تُخطئ أبداً، تقول: الذي يتسبب في وصول غيره إلى السلطة يمشي إلى دماره. لأن هذه القوّة التي أوجدها إمّا بالمهارة أو بالقوّة غير راسخة ولا أكيدة لمن يُصبح ذو سلطة.

(٣) هكذا كانوا يسمون "قيصر بورجيا" ابن البابا "ألكسندر".

(٤) ذهب "ميكافيللي" إلى "نانتي" في عام ١٥٠٠ عندما أوّل بعثة له في "فرنسا" (رسالة ٢١ تشرين الثاني ١٥٠٠)، وهنا يحرّض "ميكافيللي" شخصيّة أساسيّة في تفكيره وهي "قيصر بورجيا" (١٤٧٥ — ١٥٠٧) ابن "ألكسندر السادس" الذي أصبح دوق في "فالينتني" عام ١٨٩٨.

- ٤ -

لماذا لم تثور مملكة (داريوس) التي احتلها ألكسندر على خلفائه بعد وفاته؟

إذا وضعنا نصب أعيننا الصعوبات التي نواجهها في دولة محتلّة حديثاً، يُمكن أن يُدهش البعض من أنَّ "ألكسندر الأكبر" أصبح سيداً في "آسيا" خلال سنواتٍ قليلة، بعد أن احتلّها بمشقّة كبيرة... ثم مات. من هنا يبدو من البديهي أن تثور الدولة بأكملها، إلاّ أن خلفاء ألكسندر استطاعوا الحفاظ عليها دون أن يواجهوا أيَّة صعوبات إلاّ تلك التي نشأت فيما بينهم بسبب أطماعهم الخاصة.

وفي هذه الناحية أحب أن أعطي رأيي... إنَّ الولايات المُغرقة في التاريخ تُحكم بطريقتين مختلفتين: إمّا من قِبل أمير والآخرون جميعاً في خدمته كالوزراء، ويساعدون في حكم هذه المملكة بفضل الأمير وإنعامه. أو من قِبل الأمير ومن معه من بارونات.. وهؤلاء يشاركون في الحكم بسبب سلالتهم الملكيّة وطبقتهم العُليا وليس بمنَّة الأمير. وللبارونات دول خاصة فيها رعاياهم الذين يعترفون بهم كأسياد ويكنّون لهم ولاء طبيعي.

وإذا عُدنا إلى الطريقة الأولى أي إلى الدول التي تُحكم بأمير وخدمه، نجد في هذه الدول أمير معيّن بسلطة ونفوذ كبيرين، ولا أحد في المقاطعة يعرف شخصاً أعلى منه سلطةً، وإذا حصل ووجدوا شخص آخر فإنه سيكون في مرتبة الوزير وموظفي الحاكم وبالتالي سيحملون له محبّة خاصة.

الأمثلة على نوعي الحكم هذين عديدة... لنأخذ من عصرنا مثلاً تركيا

وملك فرنسا، فالملكيّة العثمانية[1] كلها محكومة بسيد واحد بينما البقيّة خدمه. وبما أنّه قد قسَّم مملكته إلى سناجق (مقاطعات عثمانيّة)، أصبح فيها إدارات مختلفة يحوّلها ويبدّلها كما يحلو له، بينما يُحاط ملك "فرنسا" بعدد كبير من السادة القدماء في هذه الدولة، المعروفين من رعيّتهم والمحبوبين من قبلهم لهم امتيازاتهم الخاصة وليس للملك أن ينتزعها منهم دون أن يشكّل ذلك خطر عليه.

إذاً، من خلال المقارنة بين هاتين الدولتين نجد أنّه من الصعب احتلال دولة الأتراك... ولكن إذا احتُلّت سيكون من السهل جداً الاحتفاظ بها.

وبالعكس تماماً... فإن احتلال المملكة الفرنسية أسهل بكثير في بعض النواحي، بينما الاحتفاظ بها صعب جداً.

وتكمن أسباب الصعوبة في احتلال "مملكة الأتراك" في استحالة أن يكون ذلك مقبولاً من أمير هذه المملكة، وأن تستطيع تسهيل مشروعك هذا بتمرّد أولئك الذين حوله، وهذه هي الطريقة التي تؤدي عادة إلى الانهيار، فالجميع عبيده ومأموروه ولا يمكن إفسادهم وإذا حصل وأُفسدوا، لا تتأمَّل منهم الكثير من الفائدة. إذاً، يعجز الأجنبي عن الإندساس بين الشعب التركي وإفساده للأسباب المذكورة أعلاه... ومن هنا تأتي ضرورة أن يفكِّر من يقاتلهم بأنّه سيجدهم موحّدين جميعاً، وبأنّه من الأفضل له أن يعلّق أمله على قوّاته الخاصة أكثر مما يعلّقه على تشتيت الآخرين فإذا هُزم عدوه وخرج من الميدان بشكل لا يعود معه قادراً على إعادة تشكيل وتجهيز جيشه فعليه آنذاك ألاّ يخشى شيئاً آخر إلاّ سلالة الأمير... فإذا انهارت بدورها لن

(١) كلمة "ملكية" ليسَ مرادفاً لكلمة "إمارة"، استخدمها "ميكافيللي" في "الأمير" ليميّز الحكم التركي دون تسجيلها لهذا السبب في تصنيف أشكال الحكم.

يعود هناك ما يخشاه خاصةً وأنّه ليس للآخرين سلطةٌ على الشعب، وبما أنَّ المنتصر لم يكن أصلاً يعقد الآمال عليهم قبل نصره فلن يخشاهم بعده.

أمّا بالنسبة للممالك المحكومة بالأسلوب الفرنسي فإن الأمور تسير بعكس سابقتها، إذ أنَّ الدخول إليها سهلٌ.. وذلك بكسب بارونا ما من المملكة وبما أنّه دائماً فيها متضررون وأفرادٌ يرغبون بمكانة أرفع فإن هؤلاء وللأسباب الآنفة الذكر يمكنهم أن يمهّدوا الطريق لغزو دولتهم وبذلك يسهّلون النصر عليها. وهؤلاء الأشخاص ذاتهم الذين ساعدوك في النصر بالإضافة إلى مَنْ تقمعهم وتُسيء إليهم سيخلقون فيما بعد صعوبات في طريقِك لا نهاية لها. وفي هذا الأسلوب من الحكم لا يكفي التخلّص من سلالة الأمير لأنه سيبقى منها أفرادٌ.... هم أولئك السادة الذين يدّعون قيادة التغييرات الجديدة. وبما أنّكَ لن تستطيع إرضائهم أو التخلّص منهم، فإنّك ستفقد هذه الدولة عند أول فرصة تسمح لهم بذلك.

الآن... إذا تسألنا عن نوع وطبيعة حكم "داريوس"، سنجدها مشابهة للمملكة التركيّة، ولهذا كان على "ألكسندر" بدايةً أن يواجهها كاملةً ويأخذ منها النصر الحربي. وبعد هذا النصر قُتِل "داريوس"، واستمرت هذه الدولة، لنفس الأسباب التي ناقشناها سابقاً بين يدي "ألكسندر" وخلفاءه الذين كان بإمكانهم التمتّع والاستفادة منها لو أنّهم اتحدوا إذ لم يكن هناك من ضوضاء أو مُناوشات في هذه المملكة إلاّ تلك التي أحدثوها بأنفسهم وفيما بينهم.

لكن الدول المنظمة كالدولة "الفرنسية" من المستحيل امتلاكها بهدوءٍ كهذا، وانطلاقاً من هذه النقطة تفسَّر الثورات المتعددة في "إسبانيا" و"فرنسا" و"اليونان" ضد الرومانيين، بسبب تعدد الولايات في هذه الدول، وبقدر ما بقيت الذاكرة الجماعية، كانت "روما" دائماً غير أكيدة من هذه الملكيّة.

ولكـن مـا إن دمّـرت ذاكـرة هـذه الـدول حتّـى أصـبح الرومـان المـالكون المؤكـدون فيهـا بالـسلطة والاحـتلال المـستمر طـويلاً ، وكـل واحـدٍ مـن الـذين سـيحاربون فيمـا بيـنهم لاحقـاً ، يُمكنـه أن يأخـذ بعـد ذلـك حـصّة مـن هـذه المقاطعات، حسب السلطة التي كـان يملكهـا في الـداخل. وبعـد الـتخلّص مـن سلالة ساداتهم القدامى، لم يعرفوا سادة آخرين غير الرومان.

إذا أخذنا كل هذه الأمور بعين الاعتبار، لن يُدهش أحد من السهولة التي أخذ بها "ألكسندر" دولة "آسيا"، ومـن الـصعوبات الـتي واجههـا الآخـرون مثـل "بيروس" وآخرين كُثر في الحفاظ على مكاسبهم. إنَّ هذا الأمر لا يتعلّق بقوّة أو ضعف ميّزات المنتصر، بل يتبع اختلاف الدول المُكتسبة[1].

كيف يجب أن تُحكم الأمم أو الإمارات التي كانت تعيش بقوانينها قبل احتلالها.

عنـدما تكـون هـذه الـدول الـتي تم احتلالهـا مُعتـادة علـى العـيش حـسب قوانينهـا وبحرّيـة[2]، فلـن يكـون هنـاك إلاّ ثلاثـة طـرق للاحتفـاظ بهـا: إمّـا تدميرها، أو الذهاب شخصيّاً للسكن فيها، أو تركها تعيش حسب قوانينهـا الخاصـة بـشرط أن يُؤخـذ منهـا جزيـة وأن يُخلـق فيهـا دولـة بعـدد قليـل مـن الـسكان تحتفظ بها كصديق. لأن هـذه الدولـة الـتي وُجِدَت مـن قِبـل الأمـير تُدرك مدى حاجتها لـه ولا يُمكنهـا الاستمرار دون صداقته وسلطانه فتقـوم بكـل شـيء في سـبيل المحافظـة عليـه. إذاً... إذا أردنـا الاحتفـاظ بالأمـة الـتي اعتادت على العيش حرّةً، فـإن مواطنوهـا هـم الوسيلة الأكثر سهولةً مـن أيّـة

---

1 يدعو هنا "ميكافيللي" إلى اعتبار الخصوصيّة في هذه الحالات، وليس الأسباب العامة.

2 لفظ الحرّية يعني الاستقلال عن الأمّة مهما يكن شكل الحكم، وخصوصاً في الحكم الجمهوري، ومـن خـلال تعـبير "العـيش حـرّاً" نـدرك أن الجمهوريـة متمـسّكة بمنـشآتها وبـأخلاق مواطنيهـا والخبرة الفعليّة للحرية.

وسيلة أخرى، ومثال على ذلك دول "إسبارطة" والدول "الرومانيّة": "إسبارطة" احتفظت بـ"أثينا" و"طيبة" وشكّلت فيهما دولتين قليلتي العدد، ولكنّها مع ذلك فقدتهم.

الدولة "الرومانيّة" دمّرت "كابو" و"قرطاج" و"نومانس" من أجل احتلالهم. ومع ذلك لم يفقدوهم. أرادوا أيضاً أخذ "اليونان" كما كسبوا "إسبارطة" وذلك بجعلها حرّةً تقريباً وترك قوانينها فيها، لكن ذلك لم ينجح أبداً، فاضطروا إلى تدمير عدد من النواحي في هذه المقاطعة للاحتفاظ بها، لأنّه لا يوجد، في الواقع، طريقةٌ مؤكّدة للحصول عليها إلاّ تدميرها، ومن يصبح أميراً على دولةٍ مُعتادةٍ على العيش حرّة... عليه أن يتوقّع أن تدمّره، إن لم يدمّرها هو لأنها دائماً عند أي تمرد ستجد الملجأ وهو اسم الحريّة وأنظمتها القديمة التي لن تنساها قط لا بطول الوقت ولا بالنِعَم والعمل الجيّد. ومهما فعلنا أو عالجنا إذا لم ينقسم السكان ولم يتفرقوا، لن ينسوا اسم الحريّة ولا تلك العادات والأنظمة وسيهرولون إليها حالما يقع أي حدثٍ أو تأتي فرصة مناسبة كما فعلت "بيزا" بعد أن ظلّت مئة عام في خدمة "الفلورنسيين"[1].

عندما تكون الأمم معتادةٌ على العيش تحت إمرة أمير ما، ثم يأتي من يدمّر سلالة هذا الأمير، فإنّها لن تتفق أبداً فيما بينها إلاّ حين تجد أميراً، لأنّها من جهة، معتادةٌ على الطاعة ومن جهة أخرى لا تجد أميرها القديم الذي كانت تُطيعه. وهي لا تعرف كيف تعيش حرّة، لذلك تلجأ إلى السلاح وهكذا يستطيع أي أمير آخر كسبها بسهولة وترسيخ وجوده فيها.

بالنسبة للجمهوريّة... نجد فيها حياة أكثر وكره أكبر ورغبة في الثأر لا حد لها، وذكرى الحريّة القديمة لا تترك الشعب يرتاح. لذلك فإن الطريق الأكثر ضماناً إليها، هو تدميرها أو الإقامة فيها.

---

1 "بيزا" خضعت "لفلورنسا" منذ عام ١٤٠٦ وثارت عام ١٤٩٤ بمناسبة مرور شارل الثامن في "إيطاليا".

-٥-

ولايات جديدة تكتسب بالأسلحة الخاصة والفضيلة

أرجو ألاّ يُدهش المرء من عظمة الأمثلة التي سأذكرها عندما سأتحدّث عن الولايات الجديدة كلياً بالنسبة للأمير والدولة.

لأن الرجال يسيرون دائماً فوق الطُرق الممهّدة من قبل غيرهم، ويُحاكون في تصرفاتهم إزاء الأحداث تصرّفات الغير، وبما أنّه لا يمكن للمرء أن يتبع بشكل كامل طريق الغير، ولا أن يبلغ فضيلة أولئك الذين يقلّدهم... فإنّه على الرجل الحكيم أن يلتزم دائماً بطرق ممهّدة من قِبل الرجال العظماء وأن يقلّد أولئك الممتازين - بحيث أنّه إن لم تستطع فضيلته التوصّل إليهم، تكون قد أخذت على الأقل شيئاً منهم ولو كان بسيطاً - إنّه بدلك يحذوا حذو رُماة السهام الحكماء الذين يصوبون أعلى بكثير من مكان الهدف المخصص، بالرغم من أنَّ المكان الذي يهدفون إليه بعيدٌ جداً وهم يعرفون إلى أي مدى يمكن أن تصل سهامهم. وليس هدفهم من هذا هو التوصّل إلى ذلك العلو وإنما التوصّل إلى هدفهم الأساسي الذي قصدوه بمساعدة هذه النقطة العالية جداً.

إذاً... في الولايات الجديدة كُلّياً حيث يكون الأمير جيد أيضاً، نواجه صعوبات في الحفاظ عليها تقلُّ وتكثر حسب شجاعة وصلاح ذلك الذي احتلها. ويتطلب هذا الحدث من المواطن العادي الذي أصبح أميراً، إمّا فضيلة أو حظ وقدر، ويبدو أنَّ كلا الشيئين يخففان الصعوبات العديدة نوعاً ما... إلاّ أنّ الذي يعتمد على الحظ والقدر أقل مما يعتمد على الفضيلة يحافظ على

كسبه أكثر، وإن كان الأمير مضطراً للسكن شخصياً في هذه الإمارة لأنه ليس لديه دول أخرى، فإنّ ذلك يسهّل الأمر أكثر.

وإذا أتينا إلى أولئك الذين أصبحوا أمراء بامتيازهم الخاص وليس بالقدر.... نجد أفضلهم "موسى" و"سيروس" و"تيزيه" وأمثالهم[1]. ومهما يكن الأمر فيما يخصُّ "موسى"، لا يجب البحث عن برهان، لأنّه منقذٌ بسيط لأمورٍ أمر اللّه بها، ومع ذلك، يجب أن يكون مستحسناً على الأقل بسبب هذه المنَّة التي جعلته يستحق أن يتحدَث مع اللّه.

لكن إذا تأمّلنا "سيروس" والآخرين الذين كسبوا أو أسسوا ممالك، سنجدهم جميعاً مقبولين مستحسنين ومفضّلين من شعبهم فإذا نظرنا إلى أعمالهم وأمورهم الخاصة وجدناها لا تُظهر أي عدم تكافؤ مع أمور وأعمال "موسى" وهو معلِّم عظيم جداً. ومن خلال البحث في وقائعهم وحياتهم، نجد أنّه لم يكن لديهم غير الفرصة التي أعطتهم إياها الأحداث ليستطيعوا أن يُدخلوا إليها ذلك الشكل الذي يبدو لهم جيداً، ودون هذه الفرصة ستنطفئ فضيلة عقلهم... ودون هذه الفضيلة ستكون الفرصة قد جاءت عبثاً: لقد كان من الضروري بالنسبة "لموسى" أن يجد شعب إسرائيل عبيداً في مصر ومضطهدين ليستعدّوا لأن يتبعوه لكي يخرجوا من العبوديّة. ولكي يصبح

---

(١) "سيروس": اعتُبر مؤسس سيادة الإلهة "مينرفا"، الفصل (١٤ ـ ١٦ ـ ٢٦)، الخطابات الجزء الثاني الفصل (١٢ ـ ١٣)، الجزء الثالث الفصل (٢٠ ـ ٢٢ ـ ٣٩).

ـ "تيزيه": حسب الأسطورة مؤسسس "أثينا".

ـ "رومولوس": حسب سيرة القديسين، أسسس "روما" بعد أن قتل أخاه "ريموس" سنة ٧٥٣ قبل الميلاد.

ـ "موسى": بني من التاريخ المقدّس، حرر الشعب اليهودي، طرح "ميكافيللي" الحديث عنه شرحاً للأحداث "الزمنيّة" أو "الدنيويّة" له. كما سيفعل في الفصل (١١) فيا يخصُّ السلطة المكتسبة بالباباويّة.

"رومولوس" ملكاً على "روما" ومؤسساً لهذه الدولة، كان ينبغي ألاّ يجد مكاناً وأن يكون مهملاً في طفولته. وكان يجب أن يلتقي "سيروس" بالفُرس المستائين في سلطة "الميديين" الذين خنَّثتهم فترة السلام الطويلة.

ولم يكن من الممكن أن يظهر "تيزيه" بإمتيازه وفضيلته دون أن يجد أهل "أثينا" متفرقين. بالخلاصة جعلت هذه الفرص من هؤلاء الرجال أناساً سعداء، بينما جعلت منهم فضيلتهم الممتازة أشخاصاً قادرين على التعرّف على هذه الفرص ومن هنا... أصبح وطنهم مُعظماً وسعيداً جداً. إن أولئك الذين أصبحوا أمراءً عن طريق الإمتيازات يماثلون هؤلاء، إذ أنهم يكتسبون الولاية بصعوبة، لكنهم يحافظون عليها بسهولة. والصعوبات التي يواجهونها في اكتساب الإمارة تتولّد من الأنظمة الجديدة والطرق التي يُدخلونها رغماً عنهم لتأسيس دولتهم واستقرارهم. ويجب أن نأخذ دائماً بعين الاعتبار أنّه ما من شيء أصعب بالمعاملة ولا أكثر ارتياباً في النجاح ولا أكثر خطورةً في التحرّك من أخذ المبادرة بإدخال أنظمة جديدة. لأنَّ ذلك الذي يُدخلها سيواجه أعداءً لديه وهم كل أولئك الذين يستفيدون من الأنظمة القديمة، وكمدافعين غير متحمسين كل أولئك الذين سيستفيدون من الأنظمة الجديدة هذا من ناحية، أمّا من الناحية الأخرى فتتولد الصعوبة من الفتور الذي ينتج عن الخوف من الخصوم الذين لديهم قوانينهم، ومن الشك الطبيعي لدى الإنسان الذي لا يؤمن بشكل عام بالأشياء الجديدة ما دام لم يلمس التجديد بيديه. ومن هنا جاء أنّه في كل المرّات التي أتيحت لهؤلاء الأعداء الفرصة للقتال لم يفوّتوا هذه الفرصة، بينما دافع الآخرون بفتور بحيث يهلك المرء معهم لا حالة.

فالنتيجة... إذا أردنا مُناقشة هذا الموضوع... من الضروري أن تتحقق مما إذا كان هؤلاء المصلحون سادة أنفسهم أي أنّهم لا يخضعون للغير... هل هم مضطرين للتضرّع لإيصال عملهم إلى النجاح، أم أنَّهم قادرون حقّاً على فرض

الأشياء بالقوّة. في الحالة الأولى ينصدمون دائماً بنهاية سيئة ولا يقودون شيئاً إلى النفع لكن عندما يرتبطون بأنفسهم فقط كما في الحالة الثانية وبالتالي يستطيعون فرض الأشياء بالقوّة... آنذاك يكون الفشل نادراً ومن هنا جاء... أنَّ كل الأنبياء المسلحين انتصروا، وغير المسلّحين ساروا إلى هلاكهم. لأنّه بغض النظر عن الأشياء الآنفة الذكر، تتنوّع طبيعة الشعوب ومن السهل إقناعهم بشيءٍ ما... لكن من الصعب جعلهم يستمرون بهذه القناعة: لذلك من الأفضل أن تكون الشعوب منظمة على نحو يسمح بإقناعهم بالقوّة إذا لم يقتنعوا.

إنَّ "موسى" و"سيروس" و"تيزيه" و"رومولوس" لم يستطيعوا أن يجعلوهم يتقيدون بدساتيرهم لوقت طويل. لأنّهم كانوا غير مسلّحين. وفي عصرنا... سار الأخ "جيروم سافونارول"[1] إلى هلاكه مع أنظمته الجديدة. عندما بدأت الحشود لا تصدقه. ولم يكن لديه أيّة وسيلة ليقاوم أولئك الذين صدّقوه سابقاً، ولا ليجعل أولئك الذين لم يؤمنوا به ينصاعون إلى الإيمان.

لذلك من الأفضل لمن يواجهون صعاباً جمّة في قيادة أعمالهم ويجدون كل العقبات على دربهم.. أن يتغلّبوا عليها بالفضيلة. لكن إذا تغلّبوا عليها ذات مرّة وبدؤوا يُحترمون، عليهم أن يتخلّصوا من أولئك الذين يتغذّون من الرغبة بالحكم وبهذه الطريقة سيبقون قادرين بأمان محترمين وسعداء.

أود أن أضيف مثالاً أبسط من الأمثلة السابقة ولكن لديه نفس كفاءة هذه الأمثلة وأود لو يكفيني ويغنيني عن كل المماثلات الأخرى. وهو "هيريون دي سيراكوز" الذي أصبح أمير "سيراكوز" اختاروه كقائد لهم لأنهم

(١) "جيروم سافونارول" (١٤٥٢ – ١٤٩٨) له في "فلورنسا" تأثير ديني وسياسي حاسم، لقد وعظ ضد التمرد الأخلاقي لسكان "فلورنسا" والكنيسة، وربط بين مستقبل البلد، وهي ما كانت تسمى بـ "القدس الجديد"، والخلاص الأخلاقي، توفي مشنوقاً ومحروقاً في مكان عام، عام ١٤٩٨، ليس لـ "ميكافيللي" حكم متواطئ على هذه الشخصيّة التي تقاسمت أسئلتها حول إصلاح الدولة "الفلورنسية" عوضاً عن الأجوبة.

مضطهدون ومن هنا أصبح يستحق أن يكون أميرهم. لقد كان غنياً بفضيلته حتى في ظروفه الأولى، مما جعل المؤرخين يقولون عنه بأنّه لم يكن ينقصه إلاّ مملكةٌ ليكون ملكاً، لقد عمل على حل القوات القديمة، وأنشأ قوات جديدة واستغنى عن الصداقات القديمة وكوّن غيرها، وعندما أصبح لديه قوات وصداقات خاصة. استطاع أن يشيّد على هذا الأساس كل صرح بحيث أنّه عانى الكثير في اكتسابها ولكنه ارتاح في الحفاظ عليها.

-٦-

الولايات الجديدة التي نكتسبها بأسلحة الغير ولعبة القدر

إن الذين يتحولون من أناس عاديون إلى أمراء عن طريق القدر فقط، لا يعانون الكثير ليصلوا إلى ذلك ولكنهم يواجهون الصعاب في الحفاظ على ما وصلوا إليه. لقد كانت طرقهم سهلة وهم يخلّقون باتجاه السلطة ولكن من هنا تتولّد الصعاب. ويظهر مثل هؤلاء الأشخاص عندما تُمنح دولةً ما مقابل مال أو منحة. كما حصل كثيراً في اليونان، في مدن "أونيه" و"هلسبونت"... حيث عُيّن أمراء من قبل "داريوس" بهدف أن يعملوا فيها لمجده وأمنه. وهذا أيضاً ما فعله هؤلاء الأباطرة الذين توصّلوا إلى السلطة بعد أن كانوا أناس عاديين عن طريق فساد وتمرّد الجنود إنّ هؤلاء وبكل بساطة موجودون بإدارة وثروة من منحهم السلطة وهما أمران قابلان جداً للتغيير، ولا يمكن لهؤلاء الأشخاص بل إنّهم لا يعرفون كيفية الحفاظ على هذه المرتبة التي توصلوا لها، لأنهم لا يشكلون القوّات التي يمكن لها أن تكون صديقة ومدافعة. ثم إن الدول التي تأتي فجأة، ككل الأشياء التي في الطبيعة والتي تولد وتنمو بسرعة لا يمكن أن تكون لها تلك الجذور والسيقان القوية التي يمكن أن تحميها لذلك تُمحى عند أول زوبعة.

لكن إذا كان لهؤلاء الذين أصبحوا أمراء فجأة فضيلة تجعلهم يعرفون مباشرةً ما يجب عمله للحفاظ على السلطة التي وضعت بين أيديهم فإنهم

يجاهدون بعد أن يصبحوا أمراء في مجال الأسس التي يجاهد الآخرون فيها قبل أن يصلوا إلى هذا المركز.

وهنا... أود أن أدعم هاتين الطريقتين الآنفتا الذكر اللتين تساعدان المرء على أن يصبح أميراً بمثالين من الأيام التي في ذاكرتنا وهما "فرانسيسكو سفورزا" و"سيزار بورجيا".

فرانسيسكو استطاع بفضيلته العظيمة أن يتحوّل من رجل عادي إلى دوق في "ميلان" وهذا ما حصل عليه بصعوبات فائقة، ولكنه حافظ على هذه المكانة بقدر لا يُذكر من التعب.

أما بالنسبة لـ "سيزار بورجيا" فقد دُعي دوقاً في "فالونتينوا" بشكل شعبي واكتسب الدولة بثروة والده ولكنه أضاعها بها أيضاً. مع أنه عمل كل الأشياء التي يجب على رجل حكيم وذو فضيلة عملها ليرسخ لنفسة في هذه الدولة التي منحته إيّاها أسلحة وثروة الغير. لأنه وكما قلنا سابقاً... من لا يبني أساساته في البداية يمكنه أن يبنيها لاحقاً وذلك بفضيلة كبيرة. وإن كان بناؤها لا يخلو من قلق المهندس المعماري ولا من الخطر على هذا البناء. وإذا تأمَّل المرء نجاح هذا الدوق سيرى أنّه قد بنى أساسات عظيمة لسلطته المستقبليَّة.

لن أسهب في الحديث لأنني لن أجد في جُعبتي نصيحة أفضل لأمير جديد من مثال أعمال هذا الدوق فإن لم يستفيد منها فإنه لا يُلام على ذلك، لأن ذلك متعلّق بخبثٍ غير عادي وفائق للقدر.

واجه "ألكسندر السادس" الذي أراد أن يجعل من ابنه دوقاً كبيراً الكثير من الصعاب الحاضرة والمستقبليَّة... بدايةً لم يستطع العثور على أي طريق يجعله سيداً على دولة ما دون أن يتبع الكنيسة. وحين أخذ المبادرة واستطاع استخلاص دولةٍ من الكنيسة، كان على علم بأن دوق "ميلان" وأهل "البندقية" لن يسمحوا له بذلك لأن "فاتزا" و"زيمين" كانتا أصلاً تحت

حماية "البندقيّة"[1]، بالإضافة إلى أنّه كان يرى أن الأسلحة في "إيطاليا" وخصوصاً تلك التي كان بإمكانه استخدامها، كانت بين يدي مَنْ يخشون عظمة البابا، لذلك لم يكن بإمكانه الثقة بهم والاعتماد عليهم لأنهم جميعاً لـ آل "أورسيني" وآل "كولونا" ولشركائهم[2].

إذاً... لقد كان مُجبراً على تخريب هذه الترتيبات وبثّ الفوضى في الدول "الإيطالية" ليتمكن من الوصول بأمان إلى سيادة جزء من هذه الدول. وكان هذا الأمر سهلاً عليه لأنه وجد "أهل البندقيّة" مستعدّين لأسباب أخرى لكي يُخرجوا الفرنسيين من "إيطاليا"[3].

وهنا لم يكتفي "ألكسندر" بعدم المعارضة، بل سهّل أيضاً الأمور أكثر بإلغاء الزواج القديم للملك "لويس": لقد دخل الملك إلى "إيطاليا" بمساعدة أهل البندقية. ورضا "ألكسندر"، وما إن كان في "ميلان" حتّى أعطاه البابا الجيوش من أجل مشروع "رومانيا"، فأعطاه الملك السلطة لأنه رأى بأنه سيزيد من هيبته ومجده. وحين تم غزو "رومانيا" وكُسر جيش "كولونا" أراد الدوق أن يحافظ عليها أي على "رومانيا" وأن يتقدَّم ولكن أمران منعاه من ذلك: الأوّل هو جيوشه التي لم تبدي له الإخلاص أبداً، والسبب الآخر هو إرادة فرنسا، أي أنَّ جيش آل "أورسيني" الذي كان يعتد عليه قد خذله، ولم يكتفي بإعاقته وتأخيره عن الاحتلال والربح، بل قام بانتزاع غزواته منه. وكان ينظر إلى ملك "فرنسا" بعين الخوف خشية أن يتصرّف معه بطريقة مشابهة لما فعله سابقاً. لقد كان لديه دليل على آل "أورسيني" بعد احتلاله لـ

---

(١) كانت هذه المدن تحت سيطرة البابا، لكنها كانت في الواقع تحت حماية أهل "البندقية".

(٢) . "أورسيني" و"كولونا" عائلات نبيلة تتنافس للسيطرة على "روما" و "لا تيوم" وتتصارعان على السلطة البابويّة.

(٣) ـ اتحد أهل "البندقيّة" و"لويس الثاني عشر" في تحالف عام ١٤٩٩ للغزو واقتسام الدوقيَّة في "ميلان" فيما بينهم.

"فانزا" ومحاربته لـ "بولونيا"... فقد رأهم يذهبون إلى الحرب ببرود. وبالنسبة للملك فقد تعرّف على روحه وفكره عندما كان قد احتل الدوقيَّة في "أوربينو"، وهاجم "التوسكان"، حينها ألقى به الملك عليها وانسحب، لذلك قرر الدوق ألاّ يرتبط من وقتها فصاعداً بجيوش وقدر الآخرين.. فأضعف بدايةً أحزاب "أورسيني" و"كولونا" في "روما" حيث كسب كل أنصارهم الذين هم من الوجهاء وجعل منهم رجال شرفه هو مانحاً إياهم رواتب عالية كما كرّمهم بحسب صفاتهم برئاسات مدنية وعسكرية، بحيث أنّه خلال أشهر قليلة خمدت في عقولهم أفكار الارتباط والتحمّسات لأحزابهم القديمة واتجهت بكاملها نحو الدوق.

بعد ذلك وفيما كان ينتظر الفرصة الملائمة لتدمير زعماء "أورسيني" قام بتفريق زعماء آل "كولونا". وحين واتته الفرصة المناسبة استخدمها أحسن استخدام، لأن آل "أورسيني" اجتمعوا في الـ "ماجيون" ضمن أراضي "بيروز" وكانوا قد انتبهوا إلى أن رفعة الدوق والكنيسة تعني دمارهم، ومن هذا الاجتماع أشعلت شرارة التمرّد في "أوربينو" والفتن في "رومانيا" وأخطار لا نهاية لها للدوق... ولكنه وبمساعدة الفرنسيين تمكّن من التغلّب عليها، وعادت إليه هيبته. وبما أنّه لم يثق لا بفرنسا ولا بالقوّات الخارجيّة الأخرى... فقد لجأ إلى الخداع وعرف كيف يُخفي بشكل جيّد رغبته بالصلح مع آل "أورسيني" بوساطة المبجّل "بول" ـ ومعه لم يستخدم الدوق الحيل، ولكي يطمئنه ـ غمره بالمال والثياب والجياد ـ بحيث قادتهم بساطتهم إلى يديه في "سينيغاليا".

إذاً لقد هزم هؤلاء الزعماء وتحوّل أنصارهم إلى أصدقاء له، وأسس الدوق سلطته بشكل جيد جداً حيث كان يملك كل "رومانيا" مع دوقيّة "أوربينو". وكان يعتقد أنّه قد كسب صداقة "رومانيا" خاصةً وضمن هذه الشعوب في صفّه بعد أن بدأت تتذوّق طعم الرفاهية التي منحهم إيّاها.

بمـا أن هـذا الجـزء جـدير بالملاحظـة فـسأسهب في عرضـه ليقتـدي بـه الآخرون... عندما استولى الدوق على "رومانيا" وجدها تحت قيادة سادة لا قدرة لهم ولا سلطة. وكـان هـؤلاء الـسادة يعيشون على نهب رعاياهم... أكثر ممـا يعيشون علـى حكمهـم... وكـانوا يـشكّلون دافعـاً لتفرقـة وتـشتيت رعايـاهم أكثـر ممـا يـسعون لوحـدتهم. حيـث أن هـذه المقاطعـة كانـت تعـجُّ بقطـاعي الطرق واللصوص والمنازعات وكل أنواع التصرفات الفظّة الأخرى. لذلك وجد من الضروري لبعث السلام والطاعة فيها للذات الملكية، أن يمنحها حكومـة جديـدة وجيـدة. لـذلك وضـعها تحـت قيـادة الـسيد الـشريف "ريمـيرو دوركـا" ومنحـه سـلطة مطلقـة فيهـا وهـو رجـلٌ قـاسٍ سـريع التنفيـذ. وقـد اسـتطاع هـذا الشريف أن ينال بوقت قصير شهرةً واسـعةً جداً. بعـد أن أحـلَّ الـسلام والوحـدة في هذه المقاطعة. بعد ذلك، اعتبر الدوق أن السلطة الزائدة ليست ضروريّة لأنه كـان يخشى مـن أن تُصبح ممقوتـة. وأقـام في وسـط المقاطعـة محكمـة مدنيّـة مجهّزة برئيس متميّز جداً... وكـان لكـل مدينـة محاميـاً خاصـاً بهـا. وبمـا أنّـه كـان يعلم بـأن القسوة والضغوط التي استخدمها في الماضي قد ولّـدت الكـره اتجاهه... أراد أن تصفى قلوب هذا الشعب من ناحيته ليتمكـن مـن كـسبه في صفّه، لذلك حاول أن يظهر للشعب أنّه إذا كـان هنـاك قسوة في الماضـي فهـي ليست منه... بل من طبع وزيره النزق. وذات صباح.. حيث رأى الفرصة ملائمـة، قـام بتمزيق جسد وزيـره "سـيزيت" وشـطره إلى قسمين في مكـان عـام ووضـع بجانبه قطعـة خشب وسـكين مـدماة. لقـد أرضـت قـساوة هـذا المشهد الـشعب وأفزعته في آنٍ واحد.

لنعـود الآن إلى نقطـة انطلاقنـا... لقـد قلت أن الـدوق وجـد نفسه ذو سـلطة كبيرة ومؤمّناً جزئياً صد الأخطـار القائمـة، ولكـي يكـون مـسلحاً بطريقتـه الخاصـة والمـستقلّة قـام بإبـادة جيـوش جيرانـه الـتي كـان بإمكـانهـا إيذائـه، وهـكـذا... وبمـا أنـه يريـد أن يزيـد مكاسـبه فقـد بقـي عليـه أن يتجنّـب ملـك

"فرنسا" لأنه كان يعرف أن الملك الذي علم بخطأه مؤخراً لن يدعمه، ولذلك بدأ يبحث عن صداقات جديدة ويبتعد عن "فرنسا" الطامعة بالتقدم أو بالأحرى في الزحف باتجاه مملكة "نابولي" لمواجهة الإسبان الذين كانوا يحاصرون "جيت" وفي قرارة نفسه كان يريد أن يطمئن من جهتهم... وهذا ما سيتوصّل إليه قريباً إذا بقي "ألكسندر" على قيد الحياة.

كل ما سبق هو ما قام به من أحكام في الأمور الحاضرة. أمّا بالنسبة للأمور المستقبليّة، فكان عليه أن يخشى بداية ألاّ يستطيع كسب ود الخليفة الجديد في الكنيسة وأن يعمل هذا الأخير على أن يأخذ منه ما كانت قد منحته إيّاه الكنيسة. وهذا ما فكّر في استدراكه بأربع أساليب: أولاً إبادة سلالة كل هؤلاء السادة الذين سبقوه لكي يسبق البابا إلى هذه الفرصة، ثانياً أن يكسب كل أشراف "روما" إلى جانبه ليتمكن من الحدِّ من حركة البابا، ثالثاً: تحويل مجمع الأساقفة ليصبح إلى جانبه بقدر ما يستطيع، رابعاً أن يحصل على قدر من السلطة قبل أن يموت البابا ألكسندر يمكّنه من المقاومة عند أوّل هجوم. وعندما توفي "ألكسندر" كان قد حقق (٣) من (٤) واقترب من التحقيق لأنّه كان قد قتل من السادة المجرّدين بقدر ما استطاع أن يتوصّل إليهم ونجى القليلون جداً بأنفسهم. وكسب إلى جانبه الأشراف الرومان، وكان له حزبٌ أي أنصارٌ كثيرون في مجمع الأساقفة... أمّا بالنسبة للمكاسب الجديدة... فقد كانت لديه النيّة بأن يصبح سيد "توسكانا" الأول، وكان قد انتهى من الاستيلاء على "بيروز" و"بيومبينو" وأخذ "بيز" تحت حمايته كمحميّة. وبما أنّه لم يعد عليه أن يراعي "فرنسا" فقد أصبح هذا الأمر ميسراً جداً لأن الفرنسيين كانوا آنذاك قد جُرّدوا من ممتلكاتهم من قبل الإسبان وأصبح كل واحدٍ منهم مضطراً للتقرّب منه. لذلك فقد هجم على "بيز" ومن ثمَّ على "لوكيه" و"سبين" فاستسلمتا فوراً - بسبب الخشية من الفلورنسيين من ناحية ومن الناحية الأخرى بدافع الخوف. ولم يكن لدى

"الفلورنسيين" آنذاك من حل، ولو أن ذلك نجح - كان من الممكن أن ينجح في نفس السنة التي توفي فيها "ألكسندر" لكان من الممكن اكتساب قدرٍ من القوّة والهيبة سيمكناه من ترسيخ ذاته، والاستغناء عن الارتباط بثروة وقوّة الغير، وإنما الاعتماد على قدرته وفضيلته فقط.

لكن "ألكسندر" توفي بعد خمس سنوات من بدئه باستخدام القوّة، وتركه مع الدولة الوحيدة الموحَّدة آنذاك وهي "رومانيا"، أمّا البقيّة فقد كانوا في حالة مرضٍ مميت تائهين بلا هدف، بين جيشين متعاديين قويين جداً.

إن في هذا الدوق مقداراً من القسوة والحزم ومقداراً من الفضيلة. كان يعرف جيداً كيف يجب عليه اكتساب الرجال وكيف يخسرهم، وكانت الأساسات التي بناها بوقت قصير جداً متينة لدرجة أنّه لو لم يكن أمامه هذه الجيوش التي يُجابهه، أو لو كان بصحة جيدة.. لاستطاع مواجهة كل الصعاب. وقد لوحظت صلابة وجودة أساساته عندما انتظرته "رومانيا" أكثر من شهر، بينما بقي في أمان في "روما" بالرغم من كونه نصف ميت، وأيضاً عندما جاء الـ "باغلوني" والـ "فيتولي" والـ "أورسيني" إلى "روما" ولم يستطيعوا إلحاق الأذى به. وبالرغم من أنّه لم يتمكن من انتخاب البابا الذي اختاره.. إلاّ أنه استطاع على الأقل استبعاد من لم يكن يرغب بهم. ولو كان يتمتع عند وفاة "ألكسندر" بصحة جيدة، لكانت كل الأمور سهلة بالنسبة له. وقد قال لي[1] في الأيام التي أنتُخب فيها "يوليوس الثاني"، أنّه قد فكّر بما يمكن أن يحدث بوفاة والده واستطاع التوصّل إلى حلول لكل الأمور.. ولكن لم يخطر في باله يوماً بأنه يمكن أن يعاني هو بذاته سكرات الموت في لحظة وفاة أبيه.

---

(١) - كان لـ "ميكافيللي" فرصة لقائه في البعثة إلى "روما".

الآن... بعد أن جمعت وتفحصت كل تصرفات الدوق... لا يمكنني أن ألومه عليها... بل على العكس، إنني أراها جيدةً لتُقدَّم كقدوة ونموذج كما فعلت مع أولئك الذين استطاعوا بالفرصة والقدر أو بأسلحة الغير أن يتوصّلوا إلى السلطة. فهو لديه الفكر المتوقّد والهدف السامي ومع ذلك لم يكن أمامه إلاّ أن يحكم بهذه الطريقة التي حكم بها... ولم يقف شيءٌ في وجه أهدافه إلاّ قصر حياته ومرضه.

إذاً... على من يحكم في ولاية جديدة أن يُؤمّن نفسه من الأعداء وأن يكتسب الأصدقاء، وينتصر إمّا بالقوّة أو بالاحتيال وأن يجعل نفسه محبوباً مرهوب الجانب ومطاع في الوقت ذاته ـ من ناحية الشعب ـ ومبجّلاً مكرّماً من الجنود... كما يجب عليه أيضاً أن يقضي على من يمكنهم أو يجب عليهم إيذاءه، وأن يُدخل طرق جديدة على الأنظمة القديمة وأن يكون قاسياً ولطيفاً معاً... شهماً ومستقلاً في آن واحد... كما يجب عليه أيضاً أن يتخلّص من الميليشيا التي ينقصها الإخلاص ويخلق منها ميليشيا (جنديّة) جديدة، وأن يتمسّك بصداقة الملوك والأمراء بحيث أنّهم إن أحسنوا إليه يكون ذلك امتناناً... وإن أساؤوا يكون ذلك بحذر...

بناءً على كل هذا... لن تجد أيّها الأمير مثالاً أفضل من تصرفات وأعمال قيصر بورجيا ولا يمكننا لومه إلاّ على انتخاب "يوليوس" كحبر أعظم، فقد كان هذا اختياراً سيئاً لأنّه كما قلنا لم يتمكن من اختيار البابا بطريقته ولكنه مع ذلك كان يستطيع أن يمنع شخصاً ما من أن يكون البابا، وكان عليه ألاّ يعطي موافقته على باباويّة أولئك الكرادلة الذين كان قد آذاهم فيما مضى أو الذين يجب أن يخافوه عندما يصبحون باباوات لأنَّ الرجال يسببون الأذى إمّا بدافع الخوف أو بدافع الكره، ومن بين الذين آذاهم كان

"سان ـ بير ـ أيز ليان" و"كولونا" و"سان ـ جورج" و"اسكانيو"[1]... أمّا الباقون فقد كانوا يخشوه عندما أصبحوا باباوات ما عدا "الإسبانيين" لعلاقتهم به والعرفان بالجميل و"روان" بسبب السلطة القويّة ومساندة مملكة "فرنسا".

بالنتيجة... كان على الدوق قبل كل شيء أن ينتخب بابا من "إسبانيا": وإن لم يستطع، كان عليه أن يمنح قبوله لـ "روان" وليس لـ "سان بيير ـ إيز ـ ليان".

إنَّ من يعتقد أنّه في الشخصيات الكبيرة والعظيمة يمحي الإحسان الجديد إصابات الزمان الفائت، يكون مخطئاً.

لقد أخطأ الدوق في هذا الاختيار، وكان خطأه سبباً في دماره النهائي.

---

(١) ـ سان ـ بيير عدو كبير للدوق. "جيوفاني كولونا" و"رافائيل رياريو" و"اسكانيو سفورزا" أفراد في عائلات كان يقاتلها الدوق.

-٧-

من بين أولئك الذين توصلوا إلى السلطة عن طريق الشراسة

بما أنّه يمكن للمواطن العادي أن يُصبح أميراً بطريقتين لا يمكننا نسبهما كلياً للقدر أو للفضيلة، يبدو لي من غير المناسب الابتعاد عن التحدُّث عنهما. بل إنني أرى على العكس بأنّه يمكننا الإسهاب في إحداها وهي التي تتحدث عن الجمهوريات، أكثر مما سنتحدث عن الثانية.

الطريقة الأولى هي الوصول إلى السلطة عن طريق الشراسة والجناية، أمّا الطريقة الثانية فتتم باختيار المواطنين العاديين لواحد من بينهم ليصبح الأمير.

بالنسبة للطريقة الأولى سنوضّحها من خلال مثالين الأول قديم والآخر حديث... ولا نريد أن ندخل في مزايا هذا النمط بطريقة أخرى لأنني أجد هذين المثالين كافيين لمن يريد إتباع هذه الطريقة: "أجاتوكل" من "صقليا" من أصل ليس فقط عادي بل متدنّي جداً وحقير، وُلِدَ من صانع فخّار وعاش حياةً فاسقةً بكل مراحلها. تدرّج في الجنديّة من منصب إلى آخر إلى أن أصبح الحاكم الشرعي لـ "سيراكوز" وحين وصل إلى هذه المرتبة... صمم على أن يُصبح أميراً وأن يحصل بالعنف ودون امتنان للآخرين على ما مُنح له بملئ الإرادة... لذلك تواطأ مع "هاميلكار" من "قرطاج" ليحقق هذا الهدف. فساعده هذا الأخير وأرسل الجيوش لمساندته في "صقليا".

وذات صباح جمع الشعب ومجلس شيوخ "سيراكوز" كما لو أنّه يريد إطلاعهم على أمور تخصُّ الجمهوريّة، ثم أمر بإشارة منه بالتقدّم... فقتل

جنوده كل الشيوخ والأغنياء من الشعب. وحصل بموتهم على ولاية تلك المدينة دون أية معارضة أهليّة.

لقد ظهرت المميزات الفكرية والجسدية التي تدل على مستواه وأصله من خلال شراسة جرائمه.

استطاع "أجاتوكل" الدفاع عن المدينة ضد "القرطاجيين" الذين هاجموه وحاصروه مرتين. بل علاوة على ذلك فقد ترك عدداً من رجاله في مقاومة الحصار، بينما ذهب هو والآخرين للقتال في "إفريقيا"، واستطاع تحرير "سيراكوز" بوقت قصير.. وقاد "القرطاجيين" إلى وضع حرج فاضطروا للمصالحة معه وللاكتفاء بامتلاك "إفريقيا" وليتركوا "صقليا" له.

من يلاحظ حياة وتصرفات هذا الرجل لا يرى فيها ما يُنسب إلى لعبة القدر ولو قليلاً لأنّه لم يكن لأحد فضلٌ عليه، فقد كوّن ذاته بالتدريج من خلال ترفّعه في مراتب الجندية التي اكتسبها بآلاف الصعوبات والمخاطر، وبقدر كبير من الجرأة والشجاعة.

لكن لا يمكننا أن نسمي أي شيء من هذا فضيلة، فقتل مواطنيه وخيانة أصدقائه وقلّة إيمانه وعدم رحمته وخلوّه من الدين كلُّها طرق بعيدة عن الفضيلة.. يُمكن أن توصل إلى السلطة، لكنها لا تصنع المجد.

فإذا نظرنا إلى تميّزه عندما واجه وأزاح الأخطار، وإلى عظمة عقله عندما عانى وانتصر على المحن... لا نجد سبباً لنحكم بأنّه أدنى من أي قائد متميّز جداً، إلاّ أنَّ... قسوته الفظيعة وعدم إنسانيته، بالرغم من أن الشراسة اللامتناهية لا تحسب على من سيصبح مشهوراً بين الرجال المتفوقين ـ يمنعنا من إسناد ما حصل عليه إلى القدر والفضيلة.

المثال الحديث الذي قلنا إننا سنورده هو "ليفروتو دو فيرمو" من عهد حكم "ألكسندر السادس"... كان "ليفروتو" يعيش منذ عدّة سنوات دون

أب... فقد تولّى تربيته أحد أخواله المدعو "جيوفاني فاغلياني"، وعندما أصبح في ريعان الشباب مُنح للخدمة عند "باولو فيتولي" لينشأ على النظام العسكري. ومن هنا بدأ يتدرّج في مراتب الميليشيا (الجندية) إلى أن وصل إلى رتبة ممتازة.

وحين مات "باولو" خدم تحت سلطة أخيه "فيتولوزو" وخلال وقت قصير جداً استطاع أن يصبح الرجل الأول في ميليشيته، لأنّه كان ذكيّاً وقويّاً من الناحيتين البدنيّة والذهنيّة، ولكنه وضعه تحت قيادة الغير بدا له عبودية لذلك فكّر في احتلال "فيرمو" بمساعدة "فيتولي" وبعض مواطني "فيرمو" وقد كانت عبوديته أثقل عليه مما كانت حريتهم ثمينة بالنسبة لهم.

كتب "ليفروتو" إلى خاله "جيوفاني" الذي كان منذ زمن طويل خارج منزله، وكان هذا الأول يريد المجيء لرؤيتهم أي المدينة وخاله، ولتقييم إرثه لديهم. وبما أنّه لم يكن قد أتعب نفسه إلاّ لاكتساب إرثه من الشرف ولأنه أراد أن يُري مواطنيه أنّه لم يُضع الوقت هباءً... طلب أن يكون وصوله مكرّماً بمئة فارس من أصدقائه وخدمه.... ورجا خاله أن يُنظم الأمور لكي يُستقبل بالترحيب والتبجيل من سكان "فيرمو" وهذا الشرف لم يكن ضرورياً له فقط بل أيضاً لخاله لأنه معلّمه.

بالنتيجة... نفّذ "جيوفاني" هذا الواجب اتجاه ابن أخته.. وأقام هذا الأخير في منزل الخال "جيوفاني" بعد أن استُقبل استقبالاً مُشرفاً. وفي هذا المنزل قضى عدّة أيام مُتفرّغاً خلالها للتخطيط السري لما كان ضرورياً لمستقبله الآثم، ثم أقام وليمة مهيبة جداً دعا إليها "جيوفاني فاغلياني" وكل الرجال المهمين في "فيرمو". وبعد أن تناولوا الطعام وقاموا بكل التسليات الأخرى التي تُستخدم في الولائم المشابهة طرح "ليفروتو" مُتعمّداً بعض المواضيع المتعلّقة بأمور خطيرة... فتحدّث عن عظمة "ألكسندر" وابنه "سيزار"، وعن مشاريعهما. وكان

جيوفاني والآخرون يناقشونه في هذه المواضيع، وعندها نهض فجأةً ليقول بأن عليهم أن يفكّروا بهذه الأمور ويناقشوها في مكان أكثر سريّة، ثم انسحب إلى غرفة تبعه إليها الجميع... وما إن جلسوا في أماكنهم حتى خرج جنودٌ من أماكن سريّة وقاموا بقتل جيوفاني والآخرين جميعاً.

بعد هذه المذبحة... أمتطى "ليفورتو" صهوة حصانه انطلق مع جنوده إلى أن وصل إلى القصر حيث حاصر هناك المجلس الموقّر ولم يعارضه أحد هناك من شدَّة الخوف في تشكيل حكومة جديدة يكون هو الأمير فيها.

وبما أنّه قد تخلّص من كل من يمكن أن يؤذيه أو أن يكون مُستاءً، فقد كان مُرتاحاً في توطيد سلطته بأنظمة مدنيّة وعسكريّة جديدة... بحيث أنّه في ظرف عام من السلطة أصبح مصدر خوف لكل جيرانه، وبقي في أمان في مدينة "فيرمو". ولو لم يستسلم لخدمه "سيزار بورجيا" في "سينجاليا" مع آل "أورسيني" و"الفيتولي"، لكان من الصعب انتزاع "فيرمو" منه كما حدث مع "أجاتوكل". لقد سقط "ليفروتو" بعد عام من قتله لمربّيه وخنقه لـ "فيتولوزو" معلّمه في الفضائل والشراسة.

ومن الممكن أن يشك المرء في إمكانية أن يعيش "أجاتوكل" أو أي شخص مثله بأمان في وطنه وقتاً طويلاً وأن يدافع عن نفسه ضد الأعداء الخارجيين، وألاّ يكون هدفاً لمؤامرة من مواطنيه بعدما اقترف من عنف وخيانة لا نهاية لهما. فإن الكثيرين لم يستطيعوا الحفاظ على دولهم بالقسوة حتّى في وقت السلم فكيف إذا تكلّمنا عن زمن الاضطرابات في الحرب... في الواقع، إنَّ هذا الموضوع يتعلّق بسوء أو حسن استخدام القسوة. وبالحديث عن حسن الاستخدام يمكن استخدام الشر مثلما يمكن استخدام الخير.. لكن بشرط أن يكون فجأةً وفقط عند الاضطرار له للحفاظ على الأمن... لكن دون أن تستمر فيه... فنحن نلجأ إليه عندما يكون ذو فائدة كبيرة للشعب،

لكن إذا نمى وكبر بدلاً من أن يختفي مع الزمن، بالرغم من أنه في البداية كان قليل العدد.. فهذا يعد سوء استخدام له.

إن الذين يستخدمون الشر بالطريقة الأولى يستطيعون بعون اللّه والإنسان أن يحافظوا على أنفسهم في دولهم كما فعل "أجاتوكل"، أمّا الآخرون فمن المستحيل إطالة فترة حكمهم لأنهم يستخدمون الطريقة الثانية[1].

إذاً، عند احتلال دولة ما على المحتل أن يُناقش كل أنواع العنف الضروري له وأن يتدرّب على تطبيقها دفعة واحدة. لكي لا يضطر إلى تكرارها كل يوم.. وليتمكّن دون إدخال أشياء جديدة عليها من بعث الأمن في نفوس الرعيّة ومن كسبهم بإحساناته. ومن يتصرّف بشكل آخر إمّا بدافع الخجل أو سوء التصرّف سيضطر لحمل السكين في يده دائماً ولن يستطيع أبداً الاعتماد على رعاياه، وهم بالمقابل لن يطمئنوا له أبداً بسبب محاولاته المتلاحقة والمستمرة للاعتداء عليهم.

لذلك يجب أن تكون محاولات الاعتداء هذه مصوّبة كلّها دفعة واجدة، لأنه كلما كان وقت تذوّقها قليلاً تكون الإساءة أقل. أمّا الخير والإحسان فيجب أن يتم رويداً رويداً ليتذوقه الشعب بشكل أفضل.

وعلى الأمير أن يعيش مع رعيّته فوق كل اعتبار.. وألاّ يغيّر سلوكه لأي حادث خيراً كان أم شر، لأن المآزق والمحن تأتي في أوقات مُختلفة وحينها لن يكون الوقت لصالحه ليقوم بالشر. أمّا الخير الذي عمله فلن يُفيده في شيء لأنهم سيعتبرون أنّه كان مُجبراً على ذلك ولن يحفظوا له أي عرفان بالجميل.

---

(١) . إن الجوهر هو أن يكون هناك استخدام متعقّل ومدروس للقسوة.

-٨-

عن السلطة المدنيّة

لنتحدث الآن عن الطريقة الأخرى، عندما يُصبح مواطن عادي أميراً على وطنه باختيار المواطنين الآخرين وليس بالإستيلاء والشراسة، أو بأي نوع آخر من العنف الذي لا يُحتمل وهذا يُدعى إمارة مدنيّة[١]. وللتوصل إليها لا ضرورة لتوفر الفضيلة العظمى والحظ السعيد، بل الحيلة والدهاء المناسب إذ يمكن التوصّل إلى هذه الإمارة إمّا باختيار الشعب أو باختيار السادة. لأن هذان الخلطان[٢] المختلفان موجودان في كل مدينة، حيث يرغب الشعب بألاّ يكون مأموراً أو مضطهداً من السادة بينما يرغب هؤلاء الأخيرين بقيادة الشعب[٣] والسيطرة عليه.

وانطلاقاً من هذين الميلين المختلفين يتولّد في الدولة واحد من ثلاثة آثار:

1- التعبير "إمارة مدنيّة" إشكالي لأن الصفة "مدني" تعود إلى معنى محصور في الحكم بالشكل الجمهوري. ومع هذا نستطيع أن نعطيه معنى أوسع: المدنيّة هي طريقة في احترام القانون والتخلّص من العنف. في هذا المنظور، يمكننا أن نفهم لماذا يُقال عن إمارة بأنها مدنيّة عندما تنحدر من إرادة السادة أو الشعب... ذلك لأنها تعتمد على إلتحام غير إجباري.

2- إحدى الألفاظ المستعارة البليغة عند "ميكافيللي"... وهو لفظ طبي مُتداول في عصره. ويعني به هنا عناصر الصراع المدني، وقد أوضحت النظريات الفيزيولوجيا الصادرة عن الطب اليوناني الموروث في عصر النهضة هذا الاستخدام: الأخلاط الأربعة هي عناصر مساعدة أو مسيطرة في الجسم، تختلط في الجسم ويظهر المرض عندما يحدث خلل في توازن اختلاطها.

3- هنا يحدد "ميكافيللي" طريقة لنعرف ما يقصد بألفاظ "الشعب والسادة" لذلك يجب ألاّ نفصل بين المعنى الاجتماعي. الاقتصادي لهذه الكلمة والمعنى السياسي لها.

ـ أمّا سلطة أو حريَّة أو إباحة السلطة إمّا تنتج عن الشعب أو عن السادة حسب ما يملكه هؤلاء أو أولئك من فرص مناسبة.... لأن السادة يرون أنّه لا طاقة لهم على احتمال الشعب، لذلك يبدؤون بإعطاء الهيبة لواحدٍ من بينهم ويجعلوا منه أميراً ليتمكّنوا من وراء ذلك من إشباع رغبتهم بالقيادة.. والشعب بدوره لا يجد نفسه قادراً على احتمال السادة لذلك يمنح الشهرة والهيبة لشخص ليجعل منه الأمير وبالتالي يدافع عنهم تحت سلطتهم. لكن من يصل إلى الإمارة عن طريق السادة يحافظ على هذه المرتبة بصعوبة أكثر ممن يصل إليها عن طرق الشعب لأنه سيكون مُحاطاً بالكثير من الرجال الذين يظهرون له ندّيتهم وهكذا لن يستطيع أن يأمرهم أو أن يقودهم بطريقته....

أمّا من يصل عن طريق الشعب.. فإنّه سيكون وحيداً وحوله عدد قليل جداً من الناس الغير مستعدين لطاعته أو ربما لن يجد أحداً منهم. فضلاً عن ذلك فإن إرضاء السادة باستقامة ودون إلحاق الضرر بالآخرين أمرٌ غير ممكن، بينما يمكن بالتأكيد إرضاء الشعب باستقامة لأن هدف الشعب أكثر صدقاً وشرفاً من هدف السادة فهؤلاء يريدون الظلم والسيطرة. وأولئك يريدون ألاّ يكونوا مظلومين ومضطهدين. إضافةً إلى أنَّ الأمير لا يستطيع أن يحمي نفسه من شعب عدائي إن كان كثير العدد، لكن يمكنه ذلك مع السادة إن كانوا قليلي العدد... والأسوأ من ذلك أن الأمير لا ينتظر من الشعب العدائي إلاّ الهجر والتخلّي... بينما مع السادة العدائيين لا يخشى فقط الهجر والتخلي وإنما المواجهة والمعارضة أيضاً لأنهم يرون أنهم أفضل منه ولديهم من الحيلة والدهاء ما قد يفوق ما لدى سيدهم المقبل الذي سيكون منتصراً.

إن الأمير مُجبر دائماً على البقاء مع نفس الشعب... لكن يمكنه العيش بالتأكيد دون هؤلاء السادة ذاتهم، لأنه في كل يوم قادر على بناء بعضهم وهدم بعضهم ومنح الألقاب وانتزاعها على حسب هواه.

لنوضّح هذه الناحية بشكل أفضل...: يجب على السادة أن يعتبروا أنفسهم بشكل أساسي بطريقتين... إمّا أن يحكموا أنفسهم بحيث يبقون مرتبطين تماماً بمصيرك.. وعندها يجب عليهم التكريم والحب بشرط ألاّ يكونوا ذوو أطماع... والنوع الآخر يجب اختبارهم بطريقتين: فإمّا أن يقوموا بذلك بدافع الهرب من المسؤوليَّة والنقص الطبيعي في التفكير... وآنذاك عليك الاستفادة منهم خاصةً إن كانوا من أصحاب الرأي السديد لأنّك ستتشرَّف بهم في السلم، وفي أوقات المحن لن تخشى منهم شيئاً.

أمّا إذا كانوا غير مرتبطين بدافع التدقيق والتطلّع والطموح، فهذا دليل على أنّهم يفكّرون بأنفسهم أكثر مما يفكّرون بك... لذلك عليك أن تحتاط منهم وتخشاهم كما لو أنّهم أعداء بشكلٍ صريح، لأنهم سيسعون دائماً في وقت الأزمات إلى دمارك.

ومن يصبح أميراً بمنّة الشعب عليه أن يُحافظ على هذا الشعب كصديق: وهذا ما سيكون من السهل عليه تحقيقه، لأن الشعب لا يطلب شيئاً سوى ألاّ يكون مضطهداً... لكن من يصل إلى السلطة دون إرادة الشعب وبمنّة السادة... عليه قبل كل شيء أن يسعى لكسب الشعب وهذا أمرٌ سهل عندما سيجعله بحمايته وتحت جانحه.

وبما أنه عندما يتلقَّى الإنسان حسنةً ممن لا يتوقّع منه إلاّ السوء، يلتزم اتجاه هذا المحسن أكثر مما لو كان قد أصبح أميراً بمنّة (إي بمنّة الشعب).

ويمكن للأمير أن يكسب ود الشعب بطرق عديدة لأنَّ تلك الطرق تتنوّع بحسب فاعلها ولا يمكننا منحها قاعدةً ثابتةً لذلك سنبتعد عن الحديث عنها... وسنختم بالقول بأنّه من الضروري للأمير أن يكسب الشعب كصديق... ودون ذلك لن يجد ملجأً عند الشدائد.

لقد قاوم "نابيس" أمير "إسبارطة" الحصار ضد كل اليونان وجيشٍ روماني قويٍ جداً. ودافع ضدّهم عن وطنه ودولته... وعندما دقّت ساعة الخطر كان يكفيه أن يُبعد عدد صغير من معارضيه... بينما لو كان كل الشعب ضدّه، لما كان تصرّفه وقتئذ كافياً. وإذا كان هناك من يوافقني الرأي، فعليه أن يوافقني أيضاً في هذا القول المأثور «من يعتمد على الشعب يعتمد على الوحل "... إنّه قولٌ صحيح: فعندما يبني مواطن بسيط أساسه على الشعب ويعتقد بأنّه سيحرره إن كان مظلوماً أو مقموعاً من الأعداء أو من القضاة، فإنّه غالباً سيجد نفسه مخدوعاً. مثلما حدث مع الأخوة "جيراك" في "روما" والسيد "جورجيو سكالي" في "فلورنسا".

لكن إن كان الأمير يعتمد على السلطة والشجاعة ومَن يمكنه التحكُّم بذاته في الشدائد ويعمل على التنظيم اللازم في حينه، ويقوم بتحميس الجموع الشعبيّة بفكره وتنظيماته... فإنّه لن يجد نفسه مخدوعاً أبداً من قِبَل هؤلاء.... سيبدو له أنّه يبني على أسس متينة.

إنَّ هذه الإمارات تسير نحو الهلاك عندما تكون على وشك النهوض من نظام مدني إلى المطلق[1]، لأنَّ هؤلاء الأمراء إمّا أن يكونوا ممن يقودون أنفسهم أو أنَّ هناك قضاة يحكمونهم.... وفي الحالة الثانية تكون الدولة أكثر ضعفاً وتعرّضاً للمخاطر... لأن الأمراء يتعلّقون هنا بشكل كامل بإرادة هؤلاء المواطنين المأمورين من القضاة وهؤلاء المواطنون قادرون في وقت الشدائد خاصةً على انتزاع الدولة منه بكل سهولة... إمّا بهجرانه ورفض أوامره أو بقتاله والوقوف في وجهه. ولن يكون وقت الشدائد هذا زمن الأمير.. لأنّه بأخذ السلطة المطلقة.. لن يعود المواطنون ولا الرعيّة الذين اعتادوا على

---

(١) . "مُطلق" يجب أن تفسَّر هذه الكلمة من خلال علاقتها بكلمة "ولاية مدنيّة".... إنها الحكومة المطلقة التي تحكم مع احترام القانون لكنها تسعى إلى العنف.

تلقي أوامرهم من القضاة مستعدّين لطاعة أوامره في أزمنة العبور السيئة هذه. لذلك نجده في مثل هذه الساعات الخطرة ـ مفتقراً إلى أناس يثق بهم، ولن يستطيع آنذاك الاتكال على من رآهم في الأوقات الهادئة، عندما كان المواطنون في حاجة للدولة ـ ففي حينها كان الجميع يسعون ويقطعون العهود ويطلبون الموت فداءً له، لكن ذلك كان عندما كان الموت بعيداً. لكن في زمن المحن ـ عندما تحتاج الدولة لمواطنيها... آنذاك لن تجد منهم إلاّ القليل.

إنَّ خطورة التجربة تكمن في أنّه لا يمكن القيام بها إلاّ مرّة واحدة، حينها ستكون هذه المرّة هي الأولى والأخيرة معاً. لذلك، على الأمير الحكيم أن يجعل المواطنين دائماً وفي كل الأحوال والأزمان بحاجة له ولدولته وبالتالي سيكون هؤلاء المواطنون مخلصين له على الدوام.

-٩-

كيف يجب أن تُقاس قوى الولايات

عندما نتأمل مزايا هذه الولايات، علينا أن نأخذ بعين الاعتبار أمرٌ مهم وهو: إذا حكم أميرٌ بلداً متسعاً هل سيدافع عنه بنفسه عند الضرورة، أم أنّه سيحتاج دائماً لمن يدافع عنه؟ لكي أوضّح هذه النقطة بشكل جيّد... أقول أنَّ أصحاب النفوذ الواسع والأقوياء بإمكانهم الاعتماد على أنفسهم... إمّا بكثرة الرجال أو بكثرة المال... فهم قادرون على بناء جيش كافٍ ومناسب، وهكذا بإمكانهم خوض المعارك بشكل منظّم.

أمَّا أولئك الذين لا يستطيعون التقدُّم للعدو في الخلاء، فهم دائماً بحاجة للغير، لذلك نجدهم مضطرين للّجوء إلى داخل الأسوار ليحاولوا حمايتها والبقاء داخلها.

لقد ناقشنا الحالة الأولى لاحقاً سنقول ما يجب فيها. سنلتفت الآن إلى الحالة الثانية... وفي هذه الحالة لا يمكن أن نطلب شيئاً آخر إلاّ إلتزام الأمير بتقوية وتجهيز المدينة ذاتها، وعدم أخذ أي اعتبار للبلد[1]. فبقدر ما يحصّن مدينته لمواجهة البلاد الأخرى.. وبقدر ما يُصلح شأنه مع الرعيّة كما قلنا سابقاً... يكون على من يُريد مهاجمته أن يحذر أكثر.. لأن الرجال لا يرغبون عادةً بالقيام بالمبادرات التي يواجهون فيا الصعوبات... فلا يمكن أن يُتوقَّع اليسر في مهاجمة أميرٍ محبوبٍ من شعب في مدينة محصّنة جيداً.

(١) ـ فرَّق "ميكافيللي" بين المدينة المحصّنة دائماً، والريف الزراعي المحيط بها، الذي يخضع لسيطرتها، وسكان هذا الريف ليسوا مواطنين بعكس أولئك الذي يقطنون داخل الأسوار... ولا يكون هذا الريف محميّاً دائماً من الغزوات والمقصود بالبلد هنا هو هذا الريف.

ومثال على ذلك المدن الألمانية... فهي حرّة جداً، لها ريف ضيّق الامتداد... تخضع هذه المدن للإمبراطور عندما تريد ذلك... لكنها لا تخشاه كما لا تخشى أي سلطة أخرى من حولها لأنها محصّنة بطريقة تجعل مهاجمة واحدة منها يتطلّب تفكيراً مُتأنياً وصعوبةً بالغة... فلدى كل واحدةٍ منها خنادق وأسوار مناسبة ومدافع كافية ويتوفّر في مخازنها من الطعام والشراب والوقود ما يكفي لعام كامل. فضلاً عن ذلك... ليتمكّنوا من الحفاظ على عامَّة الشعب في رفاهية دون أن يخسروا من الممتلكات العامَّة، قاموا بمشاركة السلطة في إيجاد عمل طوال العام لتلك المهن التي تشكّل عصب الحياة فيها والحِرَف التي يمارسها العامَّة[1].

كما تهتم هذه المدن بالتدريبات العسكريّة ولديها في هذا الخصوص تنظيمات عديدة تساعد في الحفاظ على أمن هذه المدينة وحمايتها.

الأمير الذي لديه مدينة منظمة دائماً كهذه ولديه حب واحترام شعبه.. لا يُمكن أن يُهاجم.. فإذا كان هناك من يقاتله فسوف يخزى وييأس: لأن الأشياء في هذا العالم تتغيَّر كثيراً لدرجة أنّه من المستحيل على شخص أن يبقى مع الجيش الذي يُحاصرها في راحة ولو كان هذا الحصار لعامٍ واحد فقط.

فإذا قال لي أحدٌ: «إذا وضع الشعب ممتلكاته في الخارج ورآها تحترق، فإن صبره لن يُطفؤها.. والحصار الطويل وحبه لذاته سينسيانه ولاءه للأمير»... عندها سأجيبه بأن الحكيم والشجاع ينتصر على كل الصعوبات وبذلك يعطي الأمل للشعب بأن المحنة لن تكون طويلة وفي حين آخر يزرع فيهم الخوف من قسوة وشراسة العدو.. وأحياناً أخرى يعطيهم الطمأنينة بإبعاد أولئك الذين يبدون لهم وقحين ومُتطاولين جداً.

1- يتحدَّث هنا عن خزينة الدولة.

ومـن جهـة أخـرى... يجـب علـى العـدو... بـشـكل منطقـي أن يحـرق ويـدمّر البلاد حالما يصل إليهـا[1] إي في الوقـت الـذي يـكـون فيـه عقـل الـشبـاب مـا زال متّقداً ومتحمّساً ونفسهم مليئة بالإرادة والحميّة للدفاع عن وطنهم. وفي هـذه الفترة على الأمير أن يخاف بشكل أقل مما سيخاف بعد عدّة أيّام عندما تبرد الألباب وتكون الأضرار قد وقعت والخسائر قد حُصرت وعُرفت ضخامتها... لأنّه آنذاك لن يجدي الدواء نفعاً... حينها سيأتي الشعب بشكل أكبر ليلتحم مع أميره لأنه سيبدو له مسؤولاً عن الدفاع عنه بما أنّه قد رأى بيوتهم تحترق وممتلكاتهم تدمَّر... عندها ستُجبرهم طبيعة الإنسان على عمل الحسنات والأعمال الجيّدة كالتي تلقّوها من أميرهم.

من هنا... إذا تأمّلنا كل هذا بشكل جيد نجد أنّه ليس من الصعب على الأمير الحكيم أن يُمسك بحزم بعقول مواطنيه وأن يحافظ على شجاعتهم طوال فترة الحصار أو الهجوم بشرط ألاّ يفتقر للمؤن.

---

(١) . يصف "ميكافيللي" هنا سياسة الأرض المحروقة في عصره، لكي يحرم سكان البلد وسكان المدينة من كل الموارد والثروات.

ولايات كنسيّة

لم يبقَ الآن سوى التحدث عن الولايات الكنسية[1]... بالنسبة لهذا النوع من الولايات تكمن كل الصعوبات فيما قبل امتلاكها. لأنها تُكتسب إمّا بالفضيلة أو بالصداقة والحظ، ويُحافظ عليها دون الأولى أو الأخرى لكونها مدعومة من قِبل الأنظمة التي أصبحت قديمة في الدين... وهي أنظمة ذات سلطة واسعة. وبذلك يمكنها الحفاظ على أميرها في عرشه مهما تكن الطريقة التي انبثق عنها أو الحياة التي عاشها.

والأمير على ولاية كهذه لديه دولة لكنه لا يدافع عنها.... لديه رعيَّة لكنه لا يحكمهم... ولا يمكن انتزاع هذه الدول من أمرائها بالرغم من أنهم لا يحمونها... كما أن شعوبهم غير محكومين من قِبَلهم... لا يتمردون عليهم... ولا يفكرون بل لا يستطيعون الانفصال عنهم... إذاً، إنّ هذا النوع من الأمراء يكونون وحدهم في أمان وسعادة لأنهم مدعومون بأسباب عُليا لا يشكُّ بها العقل الإنساني... وأنا بدوري سأبتعد عن الحديث عنها لأنّه إن كان الإنسان مختار ومرعيٌّ من اللّه... فإن مناقشة أعماله لا تصدر إلاّ عن إنسان مزهو... جسور ومتهوّر.

لكن إذا سألني أحدهم: من أين جاءت الكنيسة بتلك العظمى في السلطة الزمنيَّة، مع أنّه حتى عهد "ألكسندر" كان السادة والطغاة

1- حتى الآن لم يكن هذا النوع من الولايات منظوراً. إنّه يكشف الآن للقارئ حدود التمييز القائم في الفصول السابقة، لدينا هنا طريقة عمل ميكافيللية نموذجية تقوم على إظهار حالة مجهولة في الأطار المطروح، يجعل من الممكن إعادة اتهام القوانين المعلن عنها في هذه الحالة.

الإيطاليين... وليس فقط ذلك الذي يُدعى أمير.. بل كل بارون وشريفٍ فيها وحتّى أقلُّ واحد فيهم... لا يحملون لها الكثير من التقدير فيما يخص السلطة الزمنية؟ بينما يرتجف ملك فرنسا الآن من السلطة الكنسية التي استطاعت إخراجه من "إيطاليا" وتدمير "أهل البندقيّة". ومع أنَّ هذا الأمر معروفٌ لكن ذكره في أحد أجزائه لا يبدو لي بلا جدوى: قبل أن يذهب "شارل" ملك "فرنسا" إلى "إيطاليا"... كانت هذه المقاطعة تحت سلطة البابا و"أهل البندقيّة" وملك "نابولي" ودوق "ميلان" وأهل "فلورانسا". وكان هناك أمران يشكّلان موضع اهتمام هؤلاء الحكّام... الأول هو ألاّ يُدخل غريباً جيوشه إلى "إيطاليا"، والثاني ألاّ يتوسع أحدٌ من بينهم أكثر من البقيِّة في الدولة. وكان البابا و"أهل البندقيّة" أكثر اهتماماً بهذين الأمرين من غيرهم... فقد تطلّب سحب أهل البندقيّة إلى الوراء تحدٍّ من الجميع، كما حدث عندما دافعوا عن "فيراري"... ولإخضاع البابا تم استخدام بارونات "روما" الذين كانوا منقسمين إلى عُصْبتين "الأورسيني" و"الكولونا"[1].

وكان هناك دائماً سببٌ للفضائح بينهما، وبما أنَّهم كانوا يقاتلون تحت أنظار الحبر الأعظم... فقد جعلوا البابويّة ضعيفة ومريضة بسبب هذه النزاعات وفي بعض الأحيان كان يصل للبابويّة شخص شجاع كالبابا "سيكست". إلاّ أنَّ المصادفات والمعرفة يجعلانه غير قادر على الابتعاد عن هذه المشاحنات وأيضاً قصر حياتهم كان يمنعهم من حل هذه الخلافات... فخلال عشر سنوات يعيشها البابا متوسطيّاً.... بالكاد يستطيع إخضاع أحد هذه الأحزاب.. فمثلاً إذا استطاع أحدهم أن يهدم "الكولونا"، فإن عُصْبةً أخرى مُعاديةً "كالأورسيني" ستظهر وستجعل "الأورسيني" تنبثق من جديد، ولن

---

(١) ـ "الأورسيني" وأنصارهم اتخذوا حزب البابويّة تحت إمرة "نيكول الثالث" (١٢٨٠ – ١٢٧٧) و"الكولونا" عارضوهم دائماً باستثناء مدّة بابويّة "مارتين الخامس" (١٤١٧ – ١٤٣١).

يعود هناك متسعٌ من الوقت لتهديم "الأورسيني"... وهكذا كان كل هذا يقلل من قيمة ومكانة القوات الزمنيَّة للبابا في "إيطاليا"... بعد ذلك ظهر البابا "ألكسندر" واستطاع وحده ومن بين كل الأحبار الذين مرّوا... أن يُظهر البابا كشخص قادر على أن يقوم بأشياء في مدّة باباويته... وذلك باستخدام المال والقوّة. فقد قام الأب "ألكسندر" بكل هذه الأشياء التي ناقشتها أعلاه فيما يخصُّ أفعال وتصرفات الدوق... واستخدم من أجل ذلك الدوق "فالونينوا" مستغلاً فرصة سقوط الفرنسيين.

لم يكن البابا "ألكسندر" يهدف إلى جعل الكنيسة كبيرة وعظيمة... إلاّ أنّ ولده "سيزار بورجيا" قد اهتم بعظمة الكنيسة التي دمّرها الدوق بوفاته، وهكذا لم يجنِ ثمرة جهود أبيه. بعد ذلك جاء البابا "يوليوس"[1] فوجد الكنيسة كبيرة وعظيمة لأنّها كانت تملك كل "رومانيا "... ووجد بارونات "روما" منكسرين من تأثير ضربات "ألكسندر"... والأحبار مدمّرين... لكنه أوجد بالإضافة إلى كل هذا طريقاً مفتوحاً لتجميع المال لم يكن مستخدماً أبداً من قبل "ألكسندر". لم يتّبع "يوليوس" هذه الإساءة فقط بل عمل أيضاً على تنميتها... وفكر في كسب "بولونيا" إلى صّفه، وفي تدمير "أهل البندقيّة".... كما فكر في طرد الفرنسيين من "إيطاليا" وقد نجحت كل هذه المخططات وتلقّى قدراً كبير من الإطراء لأنه بدى كأنه عمل كل هذا من أجل تنمية الكنيسة وليس من أجل مصالحه الشخصيّة. لقد قام هذا البابا أيضاً بالحفاظ على أحزاب "الأورسيني" و"الكولونا" ضمن العلاقات التي وجدهم فيها... وبما أنّه كان يوجد بينهم دائماً زعيمٌ ما مستعدٌ لإدخال

---

1 ـ "يوليوس الثاني" (١٤٤٥ – ١٥١٣) اسمه "جوليان دولار وفير عيّن كاردينال بلقب "سان بيير إيس ـ ليان"، أصبح بابا في عام (١٥٠٣)، وبعد موت "سيزار بورجيا" عمل على ترسيخ السلطة الزمنيَّة للباباويَّة من خلال عدّة احتلالات.

تعديلاتـه... إلاّ أنَّ شـيئين جعلاهمـا ثابتـان... الأول هـو عظمـة الكنيـسة الـتي تسبب لهم الرعب. والأخر هـو أنّهـم لا يمتلكـون كـرادلتهم[1] الـذين هـم أصـل الصخب بينهم. ولم يكون هذان الحزبان هادئـان أبـداً في المـرّات الـتي كـانوا يمتلكـون فيهـا كـاردينـالات... لأن هــؤلاء يغـذُّون الأحــزاب في "رومــا".. وفي الخـارج كـان البارونـات مجـبرين دائمـاً علـى الـدفاع عـنهم. وهكـذا نـشأت الخلافات والفتن والضوضاء بين البارونات. وعندما وصل قداسة البابا "ليـون" إلى "البابـاويَّة" وجدها قادرةً جداً.... إذا جعل أولئك الباباويَّة كـبيرة بالـسلاح... لنأمل أن يجعلها هـو كبيرة وعظيمـة جداً ومحترمـة بطيبتـه وعطفـه وفضائله الأخرى اللامتناهية.

(١) . أمراء الكنيسة.

-١١-

كم نوع للجنديَّة وجيوش المرتزقة ؟

ناقشنا فيما سبق كل ميزات الولايات التي طرحناها بدايةً... ودرسنا في بعض الحالات أسباب سعادتها أو تعاستها وأظهرنا الطرق التي سلكها الكثيرون سعياً وراء احتلالها والاحتفاظ بها.

والآن بقي لي أن أتحدث بشكل عام عن من يستطيع استخدام الإساءات والدفاعات للتوصل إلى كل واحدة من الولايات الآنفة الذكر...وعن المخاطر التي تهددها والحلول الممكنة.

لقد قلنا سابقاً... أنه من الضروري للأمير أن يمتلك أساسات متينة... وبخلاف ذلك فهو يسير إلى هلاكه لا محالة. وفي مقدمة الأساسات الرئيسية التي يجب أن تملكها كل دولة سواءً أكانت جديدة أو قديمة أو مختلطة... القوانين الجيدة والجيش الجيد ، لأنّه لا يمكن أن يكون للدولة قوانين جيدة حيث لا يكون لديها جيش جيد وحيث يوجد جيش جيد توجد قوانين جيدة. لذلك لن أتحدث عن القوانين وسأكتفي بالحديث عن الجيش[١].

إما أن يكون الجيش الذي يدافع به الأمير عن دولته خاصاً أو ملحقاً أو مستأجراً أو مختلطاً. المستأجر والملحق خطيران ودون نفع... فإذا جعل أحدٌ دولته معتمدة على الجيوش المستأجرة أي جيوش المرتزقة لن تكون هذه الدولة راسخة ولا في أمان... لأنّ هذه الجيوش مفككة... غير منظمة ولا مخلصة... وجريئة ووقحة بين الأصدقاء وجبانة بين الأعداء.... لها مطامع خاصة

---

(١) ـ "قوانين وأسلحة" هاتان الكلمتان مرتبطتان دائماً عند "ميكافيللي". من وجهة نظره لا يمكننا التفكير بالنظام المدني وبالنظام العسكري بشكل مستقل كل منهما عن الآخر.

ولا تخشى الله وليس لديها إيمان أو احترام لعهودها نحو الرجال. معها... يؤخر المرء الدمار بقدر ما يؤخر الهجوم... ففي وقت الحرب ينهبه الأعداء وفي وقت السلم تنهبه هذه الجيوش... فليس لديها سبب لتكون في الميدان سوى القليل من النقود التي تأخذها كأجرٍ لها. وهذا غير كافٍ لجعل الجنود يُقبلون على الموت لأجلك. إنّهم يريدون أن يكونوا جنودك فعلاً طالما لا توجد حرب... لكن عندما تأتي الحرب فإما أن يفرّوا أو أن يذهبوا بعيداً عنها. ولأقنعك أيها الأمير بهذا علي أن أقاسي بعض التعب..

إن دمار "إيطاليا" لم ينتج عن سبب آخر سوى الاعتماد كلياً على جيوش المرتزقة والتي قد أعطت البعض فيما مضى شيئاً من النجاح... وكانت تبدو ظافرةً شجاعة عندما كانت تقاتل فيما بينها... لكن عندما يأتي الغريب تظهر هذه الجيوش على حقيقتها. وهذا ما أتاح لـ "شارل" ملك "فرنسا" الحصول على "إيطاليا" بكل سهولة... أما من يقول بأن أخطائنا هي من تسببت في ذلك، فإنه على حق... فقط إن كان يقصد التي شرحتها سابقاً... وبما أن الأمير هو الذي اقترف هذه الأخطاء.. فعليه هو أيضاً أن يعاني من العقوبات المترتبة عليها.

أود أن أوضح بشكل جيد شقاء هذه الجيوش.. فالقادة فيها إما أن يكونوا من الرجال الممتازين أو لا. فإذا كانوا من النوع الممتاز لا يمكنك الاعتماد عليهم... لأنهم يتطلعون دائماً لرفعتهم وعظمتهم الخاصة... فإما أن يطغون عليك أنت رب عملهم... أو أن يطغوا على الآخرين... دون أن تكون أنت تريد ذلك.

أما إذا كان القائد من النوع الآخر... أي الغير صالح فمن الطبيعي أن يدمرك... فإذا أجابني أحدٌ ما بأن القائد سواءً أكان من النوع المستأجر أم لم يكن.. فإنه إن كان يملك الجيش والسلاح سيسير على نفس الطريق... وهنا

سأجيبه أنا بدوري بأنه يجب على جيش الأمير أو الجمهورية أن يعمل للخير العام، وعلى الأمير أن يذهب شخصياً ليقوم بمهمة القائد لجيوشه... كما يجب على الجمهورية أن تبعث مواطنيها إلى القتال فإذا بدا شخصٌ منهم غير ذو قيمة وتعقل، عليها أن تستبدله... وعليها أن تحاسبه عندما تظهر هذه الصفات عليه بموجب القانون لكي لا يتجاوز حده[1].

ومن خلال الخبرة نجد أنَّ الجمهوريات المسلحة والأمراء هم وحدهم من يحققون النجاحات الكبيرة جداً... بينما جيوش المرتزقة هذه لا تأتي إلاّ بالخسائر والأضرار. إنَّ الجمهورية المسلحة بجيوش خاصة تجد صعوبةً بطاعة أحد مواطنيها أكثر مما تجده الجمهورية المسلحة بجيوش خارجية. وقد نجحت كل من "روما" و"إسبارطة" في البقاء مسلحة وحرة خلال عدّة قرون[2] كما بقي "السويسريون" أيضاً مسلحين جداً وأحرار...

لنأخذ كمثال على جيوش المرتزقة القديمة أهل "قرطاجة" عندما أنهوا حربهم مع "الرومانيين" وكانوا على وشك الهلاك بسبب جنودهم المستأجرين أي المرتزقة... مع أن القادة كانوا آنذاك من مواطنيهم.

بعد وفاة "إيبامينونداس" جعل "التيبانيون" من "فيليب المقدوني" قائداً على جيوشهم... فقام هذا الأخير بسلبهم حريتهم بعد نصره. ثم مات الدوق "فيليب" فاستأجر أهل "ميلان" "فرانسوا سفورزا" لقتال أهل البندقيّة وهم الأعداء المهزومين في "كارافاج" واتفق "فرانسوا" معهم على قمع سيادة "أهل البندقيّة" (أرباب عمله) في "ميلان". كان والده "سفورزا"[3] جندياً عند الملكة "جان" في

1- يكشف التعبير "يتجاوز حده" عن الضرورة الواجبة على الجمهورية بأن تضع حدوداً للطموح الشخصي للقادة.

2- بحسب تاريخ "ميكافيللي" بقيت "روما" حرة خلال ٤٠٠ عام و "إسبارطة" ٨٠٠ عام.

3- "موزيو أتوندولو سفورزا" (١٣٦٩ – ١٤٢٤) قائد مرتزقة إيطاليا لخدمات متعددة (ميلان . فلورنسا . الملكة (جان) التي خانها...).

"نابولي" فتركها فجأة دون سلاح، لذلك أُجبرت على الارتماء في أحضان ملك "أراغون" لكي لا تفقد مملكتها. ومع أن "أهل البندقيّة" و"الفلورنسيين" قد وسّعوا سلطتهم بهذه الجيوش المستأجرة... وإن كان قوادهم قد دافعوا عنهم دون السعي إلى السلطة، فذلك كله يرجع إلى أن الحظ قد خدم "الفلورنسيين".

أمّا القادة الصالحون الذين كانوا قادرين على إرعابهم.. فقد هُزم البعض منهم... ولاقى الآخرون معارضةً... ومنهم من حوّل طموحه باتجاه آخر. وكان من بين أولئك الذين لم ينتصروا "جيوفاني أوكوت"[1] وبما أنّه قد هُزم لم تستطع معرفة مدى نزاهته ولكن كل شخص يقول بأنه لو انتصر لاستطاع أن يكسب الفلورنسيين بفطنته.

لقد كان "سفورزا" و"براكسيو" ضد بعضهم دوماً، إلاّ أنَّ كل واحدٍ منهم كان يحافظ على وجود الآخر... فقد حوّل " فرانسيسكو " طموحه من "لومباردي" و"براكسيو" حوّل طموحه عن الكنيسة ومملكة "نابولي".

لكن لنأتي الآن إلى أحداث جديدة... "دوباولو فيتولي" رجلٌ حكيمٌ جداً... كسب هيبة وسمعة عظيمة جداً بجهوده الخاصة.... وجعل منه "الفلورنسيون" قائداً لهم. ولو أنَّه احتل "بيزا" لما عاد هناك شخص يمكنه أن يُنكر أنَّه من الأفضل للفلورنسيين أن يبقوا معه وأن يخضعوا له... لأنَّه إذا أصبح في جيش أعدائهم سيجدون أنفسهم بلا حيلة ولكن إذا استمر معهم، عليهم أن يطيعوه.

إذا تأملنا انتصارات "أهل البندقيَّة" سنرى أنّهم تصرّفوا بأمان واستقرار ومجد لأنّهم حاربوا بأنفسهم وهذا ما حدث قبل أن يوجّهوا مشروعاتهم إلى اليابسة عندما تصرّفوا بفضيلة جداً مع السادة ومع عامة الشعب المسلّحين... لكنهم تركوا هذه الفضيلة ما إن بدؤوا القتال على اليابسة واتجهوا نحو

---

1 ـ قائد مرتزقّة إنكليزي في خدمة الفلورنسيين في الطور الأول من الحرب ضد "جيان جاليزو فيسكونتي" (١٣٩٠ – ١٣٩٢).

عادات الحروب الإيطاليّة[1]، في بداية امتدادهم على اليابسة... لم يكن لديهم الكثير مما يخافون عليه من قادتهم إذا ما امتلك هؤلاء الأخيرون الكثير من المقاطعات على هذه الأرض اليابسة وكانت لهم شهرة وسلطة واسعة فيها.

لكن بامتدادهم تحت قيادة "كارما غنولا" لاحظوا خطأهم هذا: ففي فترة قيادته كان باسلاً جداً بمحاربته لدوق "ميلان"... ولكنه في مرحلة أخرى من الحرب أصبح متقاعساً جداً وفاتر الهمة. لذلك رؤوا أنهم لن يستطيعوا الانتصار معه بسبب نيّته السيئة... ومع ذلك لم يكن بإمكانهم عزله لكي لا يفقدوا ما كان قد كسبه... آنذاك توصّلوا إلى أنّه من الأفضل قتله لكي يطمئنوا من ناحيته... وجعلوا لهم قادة في أعقابه هم "بارتولوميو دو بورغام" و"روبيرتو دو سانسو فورينو" والكونت "بيتجليانو" وأمثالهم... ومعهم أصبحوا يخشون الهزيمة.. وليس المكاسب، كما حصل فيما بعد في "فيلا"... حيث فقدوا ذات يوم ما كانوا قد سعوا لكسبه بكثير من التعب خلال ٨٠٠ عام... وذلك بسبب هذه الجيوش التي لا تُعطي إلاّ المكاسب البطيئة والضعيفة.. أمّا هزائمها فتكون فُجائيّة وسريعة وخارقة...

إنَّ هذه الأمثلة تجعل التفكير يتجه نحو "إيطاليا" حيث يُعتمد ـ منذ سنوات طويلة ـ على جيوش المرتزقة... وهنا أودُّ أن أُسهب في الحديث عنها... وأن أفحص جوانبها المتقدّمة حيث تُصبح فرص تلافيها ممكنة أكثر بعد معرفة أصلها وتطورها... في الأزمنة الأخيرة... ما إن بدأ الاحتلال بالانسحاب من "إيطاليا" حتّى اكتسب البابا فيها سلطة وهيبة واسعتان في السلطة الزمنيَّة... وانقسمت "إيطاليا" إلى دول متعددة وأشهرت العديد من المدن الضخمة فيها السلاح في وجه نبلائها الذين سيطروا وقمعوا هذه المدن باختيار وتسهيل الإمبراطور... بينما كان هؤلاء النبلاء مفضّلين لدى الكنيسة فمن

---

(١). هنا "ميكافيللي" يلمّح للحروب بين المرتزقة حيث سيفضح الطرق في نهاية هذا الفصل.

خلالهم ستكتسب هيبتها في السلطة الزمنيَّة وخرج مواطنون في العديد من المدن الأخرى ليصبحوا أمراء وهكذا كانت "إيطاليا" خاضعةً للكنيسة وبعض الجمهوريات[1]. فكان مَنْ تحت رحمة الكنيسة أساقفة والآخرون مواطنون معتادون على عدم معرفة السلاح.. لذلك بدأت "إيطاليا" باستئجار الغرباء. وأول من منح شهرةً في هذه الجندية هو "البيريكودي كونيو" من "رومانيا"، ثم جاء من مدرسته "باراكسيو" و"سفورزا" اللذان كانا سادةً مطلقين في "إيطاليا"، بعد ذلك جاء كل الآخرين الذين حكموا هذه الجيوش حتّى هذا الوقت.. وكانت آخر فضائلهم أن جعلوا "إيطاليا" مرغوبةً من "شارل" منهوبةً من "لويس" مضطهدةً من "فيرديناند" ومسلوبةً من "السويسريين". لقد ساهم التنظيم الذي اتبعوه في بادئ الأمر بمنحهم أنفسهم الشهرة في نزع سلطتهم عن المشاة... لقد قاموا بذلك لأنهم كانوا بلا دولة.. وليس لديهم مصدر رزق غير مهنتهم الوحيدة... إضافةً إلى أنَّ عدد قليل من المشاة لن يمنحهم الهيبة والشهرة التي يريدونها ولن يستطيعوا أن يطعموهم ويؤمنوا حاجاتهم (أي للمشاة) بشكل كافٍ. لذلك اقتصروا على عدد مقبول من الفرسان بحيث يمكنهم إعالتهم... وهكذا استطاعوا إطعامهم وتكريمهم... وتطوّرت الأمور في هذا المجال إلى حد أننا لم نعد نجد في جيش مؤلّف من ٢٠ ألف جندي... ألفا جندي مشاة.

بالإضافة إلى ذلك فقد كانوا يستخدمون كل حيلهم ليقللوا من الخوف والتعب لديهم ولدى جنودهم... فلم يقتل بعضهم بعضاً في الشجارات التي كانت تحدث، بل كانوا يأخذون أسرى من بعضهم دون فدية... ولم يدخلوا المدن في الليل كما لم يتّجه أولئك الذين في المدينة نحو الخيام... ولم يكونوا يقيمون

---

(١) ـ يجب أن تفهم كلمة الجمهورية هنا كاسم معطى لكل مدينة مرؤوسة بحاكم سواءً أكانت إمارة أم جمهوريَّة بالمعنى الحرفي للكلمة.

الأسـياج مـن خوازيـق وخنـادق حـول المعـسـكـر... ولم يُحاصـروا إحـدى المـدن في الـشتاء... مـع أنَّ كـل هـذه الأشـيـاء كـانـت مـسموحة في تنظيمـاتهم العـسـكريَّة وموجودة من قِبلهم... ولكن لكي يتجنّبوا الجهد والمخاطر ابتعدوا عنها ، كما قلنا ، وظلّوا على ذلك حتّى قادوا "إيطاليا" إلى العار والعبوديَّة.

-١٢-

الجيوش المُلحقة ـ الجيوش المختلطة ـ الجيوش الخاصة

تعدُّ الجيوش الملحقة نوعاً آخر من الجيوش غير المستحبة والتي تظهر عندما تدعو صاحب نفوذ ليدافع عنك بجيوشه. كما حدث منذ بعض الوقت مع البابا "يوليوس" الذي لاحظ سوء وعدم التزام جيوش المرتزقة لديه فاضطر للالتفات نحو الجيوشً الملحقة.. واتفق مع "فيرديناند "ملك إسبانية" ليساعده بالرجال والجيوش إن هذه القوات يمكن أن تكون نافعةً وجيدةً لذاتها... لكنها ضارةٌ تقريباً دائماً لذلك الذي يدعوها... فبهزيمتها يبقى معها منهزماً... وبنصرها يبقى أسيرها...

مع أن التاريخ القديم مليء بهذه الأمثلة... لكنني لا أريد أن أتخلّى عن هذا المثال المعاصر "ليوليوس الثاني". إنَّ حظ هذا البابا الجيد أو بالأصح حدوث شيءٍ مفاجئ ساهم لكي لا يجني ثمار اختياره السيئ... فقد انهزمت جيوشه الملحقة في "رافن" ثم ظهر "السويسريون" ليطردوا المنتصر، بعكس ما كان مُتوقعاً، ويطردوا معه جيوشه وجيوش الآخرين.. وهكذا لم يقع أسيراً لا عند الأعداء الهاربين ولا عند جيوشه الملحقة.. لأنه انتصر بجيوش أخرى غير جيوشه.

لقد قاد أهل "فلورنسا" العزّل تماماً إلى "بيزا" ١٠٠ ألف جندي فرنسي لكي يحتلوها... لكنهم في طريقهم هذا تعرّضوا لأكبر خطر لم يواجهوا مثله في أي وقت من أوقات الشدائد. فقد وضع إمبراطور القسطنطينية ١٠ آلاف "تركي" لمواجهة جيرانه... لكن هؤلاء الأتراك لم يعودوا يرغبون بالرحيل بعد انتهاء الحرب. وهذا ما أدّى إلى بداية عبوديَّة "اليونان" لغير المخلصين.

إذاً... على من لا يريد النصر.. أن يستخدم هذه القوّات فهي أخطر بكثير

من قوّات المرتزقة.. لأنه معها تُحاك المؤامرات فهي متحدة بشكل كامل ومهيأة تماماً لطاعة الغير بينما تبقى قوّات المرتزقة حتّى عندما تنتصر بحاجة إلى فرصة أكبر ووقت أطول لإلحاق الضرر بك.. فهي غير متحدة وأنت من أوجدها واستأجرها ، ولن يستطيع مَنْ اخترت من بينهم ليكون القائد أن يحصل على سلطة كافية لإلحاق الضرر بك.

باختصار.. إن الخطر الأعظم عند المرتزقة هو التراخي والبلادة.. بينما الفضيلة والالتزام يشكلان الخطر الأكبر عند القوات الملحقة.. إذاً يجب على الأمير المتعقّل أن يتجنّب دائماً هذه القوات... وأن يلتفت إلى القوّات الخاصة... فهو يفضل الخسارة مع ذويّه على الكسب مع الغرباء. معتبراً أنَّ كل ما يحصل عليه بجيوش وأسلحة الغير ليس نصراً حقيقياً.

لا يمكنني أن أشكك بأفعال وادعاءات "سيزار بورجيا" فقد دخل هذا الدوق إلى "رومانيا" بالجيوش الملحقة... وكان كل الرجال فيها فرنسيين، واستطاع معهم احتلال "إيمولا" و"فورلي"... لكن فيما بعد ذلك... لم يعد يثق بتلك الجيوش... فالتفت إلى المرتزقة... مقدّراً بأنّه معها سيكون الخطر أقل.. واستأجر "الأورسيني" و"الفيتولي" وعندما وجدهم خائنين وخطرين وغير موثوق بهم قام بإبادتهم ليلتفت نحو جيوشه الخاصة... وهنا يمكننا أن نلاحظ بسهولة الاختلاف الموجود بين النوع الأول والنوع الثاني من هذه القوّات من خلال تأمُلنا وقياسنا للسلطات المختلفة والسمعة التي أعطتها تلك القوات للدوق. فعندما لم يكن يملك سوى الفرنسيين... وعندما كان لديه "الأورسيني" و"الفيتولي" وفي حالة ثالثة عندما استمر مع جنوده وحارب بنفسه وقد بقيت هذه السمعة واستمرت في اتساع مستمر..

لن يحصل الأمير على الهيبة والتكريم الذي يريده إلاّ عندما يرى كل شخص أنّه وحده الملك والمالك لجيوشه.

مـع أنـني لا أرغـب ـ الابتعـاد عـن الأمثلـة الإيطاليـة والحديثـة.. إلاّ أنّـه لا يمكنني إغفال "هيرون دو سيراكوز"...وهـو واحـد مـن أولئـك الـذين ذكـرتهم فيمـا سـبق. لقـد كـان ـ إحـدى المـرّات زعيمـاً علـى الجيـوش مـن قِبَـل "السيراكوزيين"... وقد عرف ـ الحال أنَّ هذه الجنديَّة المستأجرة التي تسلك طريق قوّاد المرتزقة لن تكون نافعة. وحين أدرك أنّه لن يستطيع الاحتفاظ بهم ولا تـركهم عمـل علـى تمـزيقهم إلى أجـزاء... ومـن ثـم حـارب بجيـشه الخـاص وليس بجيش غيره.. وهنا أودُّ أيضاً أن أستذكر أحدى الشخصيات من العهد القديم التي تتوافق مع هذا المجال.. إنَّه "داوود"... لقد قام "داوود" بتقديم نفسه إلى "شـاؤول" ليـسمح لـه بالـذهاب لمحاربـة "غوليـات".. فقـام "شـاؤول" بتسليحه بأسـلحته الخاصـة.. ليعطيـه الـشجاعة... لكـن "داوود" رفـض تحمّـل هـذه المـسؤولية قـائلاً بأنّـه لا يمكنـه أن يخـدم نفـسه أبـداً بـشكل جيـد بهـذه الأسلحة... لذلك كان يريد أن يواجه العدو بمقلاعه وسكينه.

بالخلاصة أقول.. إنَّ جيوش الغير تأتيك من الخلف إمَّا لطعنك أو لخنقك. لقـد عـرف "شـارل الـسابع" والـد الملـك "لـويس الحـادي عـشر" ضـرورة التـسلُّح بجيوش خاصة عندما حرر "فرنسا" من الإنكليز بالمال والفضيلة... فأنشأ ـ مملكته فرق رماية ومشاة... ومـن بعده قـام ابنـه الملـك "لـويس" بإدارة جيـوش المشاة... ثم بدأ باستئجار "السويسريين"... وتابع خُلفاؤه على نفس الخط.. وهـذا مـا سـبب أخطـاراً جـسيمة هـددت كيـان ووجـود هـذه المملكـة... مـن أحـداث وانهزامات.... لأنَّه عندما أعطى الهيبة "للسويسريين" حقَّـر كـل جيوشـه... فقـد أباد مُشاته تماماً وعمل علـى إجبـار جنوده علـى الارتبـاط بـالآخرين إلى جانـب "السويسريين" وأصبح يبدو لها بأنها غير قادرة على النصر من دونهم وـ نفس الوقت غير قادرة على مواجهتهم والوقوف ـ وجههم.

إذاً... لقد كانت الجيـوش الفرنـسية مختلطـة جـزء منهـا مرتزقـة... والآخـر

خاص... وهذا الاجتماع أفضل بكثير مما لو كانت هذه القوّات ملحقة فقط أو مرتزقة فقط. ولكنها مع ذلك تبقى أدنى من الجيوش الخاصة.

وهذا المثال يبدو كافياً حيث بيّن أنَّه لو كان تنظيم "شارل" أوسع أو أكثر حماية لما أمكن الانتصار على مملكته... لكن نتيجةً لقلّة الحكمة بدأ الرجال بالأكل... وبما أنَّ المذاق كان لذيذاً لم يحسبوا حساباً للسمِّ الموجود تحته... كما قلت سابقاً فيما يخصُّ حمّى المسلولين....

بالنتيجة.. من لا يتعرَّف على المضار عندما يولد في الإمارة، لن يصل إلى الحكمة الحقيقية... وهي ميّزة لا تُعطى إلاّ للقليلين.. فإذا بحثنا عن السبب الرئيسي لانهيار السلطة "الرومانيا" سنجد أنَّه البدء باستئجار "القوطيين" حينها انزعجت قوّات السلطة لأن كل الميزات التي كانت تملكها نُزعت منها لتُعطى "للقوطيين".

أختم كلامي هنا... بأنَّه إن لم يكن هناك جيش خاص، لن يكون الأمير في أمان واستقرار... بالعكس فإنَّه سيكون مجبراً على الاعتماد على الحظ والقدر... ما دام لا يملك الميّزة التي يستخدمها للدفاع عنه بإخلاص في وقت الشدائد... وهذا هو منطق العُقلاء دائماً.. فليس هناك ما هو أضعف وأقل استقراراً... وأكثر تغييراً من السلطة التي لا تعتمد على قوّاتها الخاصة. والقوّات الخاصة هي التي تتألف إمّا من رعاياك.. أو من مواطنيك... أو من شعب احتلّيته.. وكل مما تبقّى سيكون إمّا مرتزقة أو قوّات ملحقة. ومن السهل إيجاد طريقة لتنظيم الجيوش الخاصة إذا ناقشنا التنظيمات الأربعة للرجال المذكورة أعلاه، وإذا أخذنا بعين الاعتبار كيف تسلَّح وتنظّم "فيليب" والد "ألكسندر العظيم" وأمراء جمهوريات عديدة أخرى... إذاً سأستأنف في الفصل التالي هذه التنظيمات بشكل كلّي.

-١٣-

ما يجب على الأمير فعله فيما يخص الجنديَّة (الجند)

يجب ألاّ يكون للأمير هدف آخر ولا تفكير آخر... ولا فن آخر سوى الحرب وترتيبات الحر ب وتنظيماتها لأنها الفن الوحيد المُنتظر من الحاكم.. وهذا الفن من التمييز والفضيلة بحيث أنَّه لا يحافظ فقط على أولئك الذين ولدوا أمراء.. بل يوصل أشخاص آخرين بحظوظهم ووسائلهم من الطبقة البسيطة إلى مرتبة الأمراء وهذا ما حدث مراراً وتكراراً... عندما يفكر الأمير بملذاته الخاصة أكثر مما يفكر بجيوشه يفقد دولته.. والسبب الأول لفقدانها هو الإهمال لهذا الفن... أمّا ما يجعلك تكسبها فهو أن تكون معلّماً ماهراً في هذا الفن.. "فرانسيسكو سورزا" أصبح دوقاً في "ميلان" بعد أن كان رجلاً عادياً لأنه اختار أن يكون مسلّحاً أي اهتم بالجيش.. لكن أولاده رجعوا من مرتبة الدوق إلى أناس عاديين لأنهّم فضّلوا الابتعاد عن متاعب الجيش. فالأمير الأعزل يُحتقر وهذه سمعة سيئة على الأمير تجنّبها.. فليس هناك أي وجه شبه بين رجل مسلّح ورجل أعزل.. والمنطق لا يقبل إطلاقاً أن يخضع الرجل المسلّح.. لإرادة الرجل الأعزل.. ولا أن يكون الأعزل في أمان بين خدمه المسلّحين. لأنَّه سيُحقَّر عند البعض ويرتاب عند الآخرين فمن غير الممكن أن يعملوا معاً بشكل جيد لأن الأمير الذي لا يفهم شيئاً في الجنديَّة لا يمكن أن يكون محترماً ولا موثوقاً به من جنوده..

إذاً.. على الأمير ألاّ يبعد تفكيره عن هذا التدريب على الحرب.. وعليه أن يتمرّن في السلم أكثر مما يتمرّن في الحرب. ويمكن أن يقوم بتمرينه هذا بشكلين:

الأول عن طريق الفعل.. والثاني عن طريق الفكر..

بالنسبة للفعل... فبالإضافة إلى جعل جيوشه منظّمة جداً ومتمرّسة، عليه أن يذهب دائماً إلى الصيد.. ومن خلال الصيد يعتاد الجسم عل المتاعب وفي الوقت ذاته يتعرّف الأمير على طبيعة الأراضي.. ويعرف كيف تنتصب الجبال وتتفتح الوديان.. وتمتد السهول ويفهم طبيعة الأنهار والمستنقعات.. فيستعدُّ جيداً لكل هذا... وهذه معرفة مفيدة جداً من ناحيتين: أولاً يتعرف على بلده.. فيتمكن من فهم مواقع الدفاع فيه بشكل أفضل. ثانياً سيساعده هذا عن طريق المعرفة النظرية والعملية من الفهم بسهولة أكبر كل موقع آخر سيكون لزاماً عليه معرفته للمرّة الأولى. لأن التلال والوديان والسهول والأنهار والمستنقعات التي في "توسكان" مثلاً لها شبيهات في مناطق أخرى. فمعرفة موقع ما في منطقة ما يمكن أن يساعد في معرفة المواقع الأخرى... والأمير الذي تنقصه هذه الكفاءة، تنقصه الصفة الأساسيّة الواجب توفّرها في القائد العسكري، لأن هذه الميّزة تعلّمه كيف يجد عدوّه.. وكيف يحدد الأماكن المناسبة للمعسكر.. وكيف يقود جيشه وينظّم أيّام قتاله.. ويحاصر المدن بطريقة مناسبة ومفيدة له.

"فيلوبومين" أمير "آشين" مُدح كثيراً وأثني عليه.. ومن بين المديح الموجّه إليه من الكتّاب.. أنّه لا يفكر بشيء آخر في وقت السلم إلا الحرب وطرقها. فعندما يكون في الريف مع أصدقائه غالباً ما كان يتوقّف ليفكّر معهم..: " إن كان الأعداء على هذه الهضبة.. ونحن هنا بجيوشنا.. مَنْ منّا سيكون المميّز بموقعه ؟. كيف نستطيع أن نواجهه دون أن يختلَّ تنظيمنا؟ إذا أردنا الانسحاب كيف يمكننا تنفيذه؟ إذا انسحبوا هُم، كيف يجب علينا مُلاحقتهم؟... "وكان يطرح عليهم كل الحالات التي يمكن للجيش أن يتواجد فيها.. ويستمع إلى آرائهم ويقول رأيه.. ويدعمه بالأسباب والتعليل..

وهكذا عندما كان يقود جيشه لم يكن يواجهه أي مأزق إطلاقاً دون أن يجد له الحل...

بالنسبة لتمرين الفكر.. فعلى الأمير أن يقرأ التاريخ.. وأن يتأمَّل تصرفات وأفعال الرجال المتفوقين، وأن يرى كيف كانوا يسلكون في الحرب، وأن يتفحّص أسبابا انتصاراتهم وانهزماتهم ليستطيع أن يحتذي بالأولى ويبتعد عن الأخرى.. حيث يمكنه أن يفعل كما فعل، في الماضي، رجالٌ عظماء قبله؟؟ فيأخذ منهم دائماً حركاتهم وأفعالهم. مثلما قُلنا عن "ألكسندر العظيم" بأنَّه كان يقلّد "آخيل"، "سبيون" كان يقلد "سيروز".

فمن يقرأ عن حياة "سيروز" مثلاً والتي كتبها "كسينوفون" سيعرف فيما بعد عندما يطّلع على حياة "سبيون" كم كانت تلك المحاكاة سبباً في تعظيمه وكم امتثل "سبيون" بالعفّة والإنسانيَّة واللطافة والعطاء.. بأشياء كانت مكتوبة عن "سيروز" من قِبَلِ "كسينوفون".

إذاً على الأمير الحكيم المتعقِّل أن يتصرّف بطرق مشابهة.. وألاّ يبقى خاملاً كسولاً في وقت السلم.. بل عليه أن يجعل من هذا الوقت أساساً في مهنته (مهنة الحرب) ليتمكن من الاستفادة منه في زمن المحن والشدائد. فإذا خانه الحظ.. سيجد ما اكتسبه في السلم مستعداً لمساعدته ودعمه.

-١٤-

أشياء من أجلها يُلام الرجال أو يُمدحون..

وخاصة الأمراء

بقي الآن أن نرى طرق ووسائل الحكم الواجب على الأمير اتباعها سواءً مع رعبّته أو مع أصدقائه. ولأنني أعلم بأنه قد كُتب الكثير في هذا الموضوع.. وأخشى أن أتّهم بالادعاء إن أنا كتبت بنفس الموضوع، لذلك فقد ابتعدت عن أنظمة الآخرين وبالأخص عن المناقشة في هذا الموضوع.

لكن مقصدي هو كتابة شيء مفيد لمن يقرأ كتابي.. ويبدو لي الذهاب نحو الحقيقة الفعّالة للشيء مباشرةً مناسباً أكثر من تخيُّل جمهوريات أو إمارات بطريقة لا تُشبهها أبداً ولا تُرَ في الواقع أبداً لأن هذا الخيال لا يصل إلى الواقع إطلاقاً[1] فهناك فرق شاسع بين الطريقة التي نحيا بها والطريقة التي يجب علينا أن نعيش بها، لدرجة أنَّ من يترك ما وصل إليه من أجل ما سيصل إليه.. لن يصل إلاّ إلى دماره...

إنَّ الرجل الذي يريد أن يفتخر بكل صفات الإنسان الجيد، يسعى بالتأكيد إلى دماره بين مجموعة من السيئين، إذاً.. على الأمير الذي يريد

(١) ـ بالتأكيد يمكننا أن نتوصل إلى تحديد من تكلّم عنهم هنا.. لكن علينا أن نلاحظ أن "ميكافيللي" لم يذكر الأسماء عمداً، من "أفلاطون" إلى "ماكيو بالميري" كاتب "الحياة المدنيَّة".. مروراً بـ "دانتي"، "سان توماس" وطلاّبه والآخرين من مذكرات الأمراء، إنهم متعددون ممن أعدّوا الخيال والأوهام أو شكّلوا الضوابط والقوانين لفن الحكم، إن رفض المدن المتخيّلة شيء موجود عند أغلب معاصري "ميكافيللي".

الاحتفاظ بمكانته أن يسعى لئلا يكون طيّباً جداً ـ وليعرف كيف يستخدم الطيبة المحددة هذه أو لا يستخدمها حسب الضرورة.

والآن لنترك الأشياء المتخيَّلة فيما يخص الأمير جانباً.. ولنناقش الأمور الواقعيّة لقد قلتُ أنّه على كل الرجال وخاصة الأمراء، الذين يريدون أن يصلوا إلى أعلى الدرجات الممكنة، أن يكون لديهم الميّزات التي توصلهم إمّا للّوم أو للمديح..

فمثلاً.. هذا يؤخذ عليه كرمه.. والآخر بخله.. هذا مانح معطاء والآخر جشع طمّاع.. هذا قاسي وذلك يدعو للرثاء.. أحدهم كاذب ملحد والآخر صادقٌ يستحق الثقة.. واحدٌ مخنّثٌ ضعيف.. والثاني شرسٌ شجاع.. واحدٌ إنساني والآخر متعجرف.. واحدٌ شهواني والثاني عفيف طاهر.. واحدٌ واضح والآخر محتال.. واحدٌ صلب والآخر سهل.. أحدهم خطير والآخر خفيف لطيف.. واحدٌ متديّن والآخر ملحد... وأشياء أخرى مشابهة... واعلم أن لا أحد يُنكر أنَّه من الخليق جداً بالثناء أن تجد أميراً يملك شيئاً من كل تلك الصفات الواردة أعلاه، التي تؤدي إلى العطاء والطيبة.. لكن بما أنَّه لا يمكن امتلاكها جميعاً، ولا ملاحظتها بشكل كامل.. بسبب ظروف الحياة الإنسانيَّة التي لا تسمح بذلك.. فمن الأفضل للأمير أن يكون حكيماً جداً ليعرف كيف يتجنّب السمعة السيئة للرذائل التي يمكن أن تنتزع منه دولته... وأن يعرف كيف يحفظ نفسه من تلك التي لا تؤدي لذلك.. فإن لم يستطع حفظ نفسه منها.. يمكنه أن ينغمس فيها من غير تباطؤ.. حتّى إنّ عليه ألاّ يتردد في قبول السمعة السيئة لهذه الرذائل اللازمة للاحتفاظ بدولته.. لأنّه بالسعي إلى كل ما هو جيّد سيأخذ شيئاً من الفضيلة.. ولكن اتباعه سيكون دماراً... وبالعكس فإن شيء آخر سيبدو رذيلة ولكن باتباعه سيكون الأمن والرفاهية...

-١٥-

عن السخاء والجود والإفراط في التقتير

سيتم البدء بالحديث عن أول صفة من الصفات المسماة أعلاه.. لقد قلت بأنَّه من الجيّد أن يتشبث الأمير بالجود. لكن هذا الجود المستخدم لمنحك الشهرة لن يجلب لك إلاّ الضرر.. لأنَّه إذا استُخدم كما يجب أن يُستخدم.. أي بفضيلة.. فإنَّه لن يُعرف أبداً.. ولن تتجاوز أنت صفة نقيضه. لذلك، إذا أردت أن تحتفظ بين الناس بسمعة الكريم عليك ألاّ تتخلّى عن أي نوع من أنواع الكرم والبذخ.. وهكذا ستستنفد بهذه الأعمال ومشابهها كل مواردك... لتصل في نهاية المطاف إلى العوز والحاجة، فإذا أردت الاستمرار في هذا لكرم يتوجّب عليك أن تحمّل الشعب ضرائباً كبيرة جداً، وألاّ تتسامح مع أحدٍ منهم، وأن تقوم بكل ما يُمكن للحصول على المال.. وهذا ما سيجعلك مكروهاً من شعبك.. ومحقّراً بسبب فقرك من كل شخص.

إذاً، مع هذا الجود الخاطئ حيث قتّرت على الكثير من رعيّتك وكافأت القليل.. ستسقط عند أول خطر حقيقي يلمُّ بكَ.. وستُدرك ذلك وتود التراجع عنه... ولكن الوقت سيكون قد فات.. وستكون قد حصلت على اللقب السيء الذي طالما تجنّبته (مقتّر). لذلك يجب على الأمير الذي لا يستطيع استخدام هذه الفضيلة في الكرم بطريقة جيدة وصحيحة تجعلها معروفةً دون أن تسبب له الضرر.. أن يتقبَّل لقب "المقتّر" وألاّ يتضايق منه إن كان حكيماً.. لأنه سيُصبح مع الوقت ملتزماً بالكرم الحقيقي دائماً.. وسيرى أن هذه الموارد تكفيه بفضل تقتيره... وأن بإمكانه الدفاع عن نفسه

ضد من يُحاربه.. وأنَّه قادر على قيادة المشاريع دون أن يحمّل الشعب ضرائب لا طاقة له بها.

إن مثل هذا الأمير سيبدو سخيَّاً معطاءً لأولئك الذين لا يأخذ منهم شيئاً. وهم الأغلبية اللامتناهية.. بينما ستظهر بمظهر البخيل المقتّر بالنسبة لمن لا يعطيهم شيئاً وهم الأقليَّة وفي عصرنا الحاضر، لا نرى هؤلاء الأمراء يقومون بأشياء عظيمة.. لاسيما أولئك الذين يتّصفون بالبخل. لقد استفاد البابا "يوليوس الثاني" من لقب الكريم في الوصول إلى كرسي الباباويَّة[1].. لكنه بعد وصوله لم يعد يفكّر في الحفاظ على هذا الكرم لأنّه إلتفت إلى الحروب. أمَّا ملك "فرنسا" الحالي فقد قام بعدد من الحروب دون أن يفرض الضرائب الغير محتملة... وذلك لأنَّه كان يتجنّب النفقات الزائدة منذ زمن طويل...

أمَّا بالنسبة لملك "إسبانيا" الحالي.. فلو أنّه وصِفَ بالكريم.. لما استطاع تحقيق هذا القَدْر من المشاريع بنجاح.

بالنتيجة.. يجب على الأمير أن يهتم بأن يُعامل كبخيل.. كي لا يضطر إلى نهب رعيّته.. ولكي يستطيع في نفس الوقت أن يُدافع عن نفسه... ولا يُصبح فقيراً مُحتقراً.. فيصلُ بالنتيجة إلى الجشع والاحتيال. فالبخل هو أحد الرذائل التي تضمن البقاء في الحكم، وإن قال أحد: «إنّ "قيصر" السياسي الروماني قد توصّل إلى السلطة عن طريق كرمه.. وأنَّ أشخاصاً آخرين كُثُر قد حصلوا على مراتب عالية جداً لأنهم أظهروا الكرم واعتُبروا كرماء... فسأجيبه بأنّه إن كنت أميراً.. أو كنت تسعى لذلك فإنَّ هذا الكرم سيشكّل خطراً عليك في الحالة الأولى... أمَّا في الثانية فإنَّه سيكون

---

(١) ـ تلميح إلى أنَّ البابا "يوليوس الثاني" قد أغدق الأموال والوعود بالمراكز مُقابل اختياره للباباويَّة.

ضرورياً.. و"قيصر" كان واحداً ممن أرادوا الوصول إلى إمارة "روما".. لكن الاستمرار في الكرم وعدم الاعتدال في النفقات بعد التوصل إلى هذه الإمارة أدّى إلى دمار سلطته. وهنا إن ناقشني شخص آخر قائلاً: «كثيرون هم مَنْ أصبحوا أمراء.. ثم قاموا بأشياء عظيمة مع الجيوش والسلام.. وبقيوا متشبثين بالكرم المفرط».

أرد عليه قائلاً: إمَّا أن يُنفق الأمير من أمواله الخاصة وأموال شعبه.. أو أن يُنفق من مال غيره. في الحالة الأولى عليه أن يقتّرَ بقدر ما يستطيع.. أمَّا في الحالة الثانية فعليه ألاّ يتخلى عن أي جانب من جوانب الكرم.. فالأمير الذي يقود جيش يتغذّى من الغنائم والنهب والفديات، يُنفق من أموال غيره وهنا يكون السخاء ضرورياً له وبدونه لن يتبعه جنوده، فكل ما ليس لك أو لجنودك يمكنك أن تكون فيه معطاءً جداً. كما فعل "سيزار" و"قيصر" و"ألكسندر"، لأنّه إذا أنفقت من مال الغير لن يُساء إلى سُمعتك، بل على العكس ستُضيف إليها الحسنات، وإنّ ما يُدمّرك فقط هو الإسراف من مالك الخاص ، وهل هناك ما يُضني مثل الكرم.. به تفقد مواردك وتُصبح فقيراً ومُحتقراً أو جشعاً ومكروهاً لتهرب من الفقر، ومن بين الصفات التي على الأمير تجنّبها هي أن يكون مُحتقراً أو مكروهاً.. ومع الكرم تقودك الواحدة إلى الأخرى..

بالخلاصة.. هناك حكمة أكبر في أن يحتفظ الأمير بلقب البخيل الذي يولّد سمعة سيئة دون كره، من أن يعيش في عوزٍ ليحصل على لقب الكريم الذي يُرافقه بالضرورة صفة الطمع التي تولّد سمعة سيئة مُرافقة بكره وحقد.

-١٦-

عن القسوة والرحمة

الأفضل أن تكون محبوباً على أن تكون مرهوب الجانب أو العكس

سنتابع في هذا الفصل مع الصفات الأخرى التي تكلمنا عنها سابقاً.. لقد قلتُ بأنّ كل أمير يرغب بأن يُعتبر طيباً وشفوقاً وليس قاسياً شرساً، لكن عليه أن ينتبه كي لا يستخدم هذه الشفقة بشكل سيء. مثلاً "سيزار بورجيا" كان قاسياً، إلاّ أنَّ قسوته هذه قوّمت حالة "رومانيا" ووحّدتها.. وحوّلتها إلى السلام والإخلاص. فإذا تأمّلنا هذا جيداً سنرى أنّه (أي سيزار بورجيا) كان شفوقاً أكثر بكثير من الشعب "الفلورنسي" الذي أراد تجنُّب لقب القاسي..فأدّى ذلك إلى قيامه بأعمال أوصلت "بيستوا" إلى الدمار. بالنتيجة.. يجب على الأمير ألاّ يستاء من لقب (القاسي) إذا كانت قسوته بهدف جعل شعبه موحداً مخلصاً.. لأنه بأمثلة قليلة جداً سيصبح طيباً شفوقاً أكثر من أولئك الذين يتركون الفوضى والمشاكل تنشأ بسبب شفقتهم المبالغ فيها.. فهذا سيولّد سرقة ونهب وستقع الجرائم والاغتيالات.. وهكذا سيكون هذا الأمير الطيب قد أهان كل مواطنيه بشكل طبيعي.. بينما تبقى الإجراءات التي يتّخذها الأمير ذو اللقب "القاسي" موجّهة إلى مجموعة محددة من المواطنين.

ومن المستحيل على أمير جديد دوماً أن يتجنّب لقب القاسي لأن الدول الجديدة تكون مليئة بالمخاطر. وفي ذلك قال "فيرجيل" على لسان "ديدون":

«تُرغمني الظروف الصعبة والحداثة في الحكم على اتخاذ تلك الإجراءات وعلى حماية حدودي بشكل ظاهر جداً». ولكن على الأمير الجديد أن

يُحافظ على معتقداته وتصرّفاته وألاّ يصنع الخوف بذاته وأن يعتدل بالحكمة والإنسانيَّة ويتصرّف بحيث لا تجعله الثقة المفرطة متهوراً ولا الحذر المبالغ فيه غير مُحتمل.

ومن هنا نشأ الخلاف حول ما إذا كان من الأفضل أن يكون محبوباً أم مرهوب الجانب.. وعلى هذا التساؤل أجيب بأنَّه عليه أن يكون الاثنان معاً.. لكن بما أنّه من المستحيل أن يوافق بين الاثنين معاً.. فمن الأفضل أن يكون مخشياً مرهوب الجانب.. على أن يكون محبوباً. لأن الناس بشكل عام جاحدون ومتقلّبون، ومتصنّعون، ومنافقون.. يفرّون أمام المخاطر، ويطمحون بالربح طالما أنك تُحسن إليهم.. إنهم لكَ بكلّيتهم.. يقدمون الدم والعطاءات والروح والأولاد فداءً لك وكل هذا، كما قلت سابقاً، عندما لا تكون بحاجتهم... ولكن ما إن تحتاجهم حتّى يبتعدون عنك.. وستسير أيّها الأمير الذي اتكلت كلياً على كلامهم ووعودهم نحو دمارك.. وستجد نفسك عندما تحتاجهم عارياً محلولاً من كل ارتباط أو عهد... لأن الصداقات التي تُكتسب مقابل الأجر.. وليس بالعظمى ونُبل التفكير، يُمكن شراؤها لكن لا يمكن امتلاكها... ولا يمكنك في وقت الاستحقاق أن تصرفها. إنّ الناس يؤذون الشخص المحبوب أكثر مما يؤذون الشخص المخشي.. لأن الحب مأخوذ برباط الإجبار الذي يُكسر ما إن تأتي فرصة للمنفعة الخاصة... لأنهم (إي الناس) سيئون..لكن الرهبة والخوف يؤخذان بالتوجُّس من العقاب الذي يلازم الأمير دائماً.

إذاً.. على الأمير أن يسعى ليكون مرهوباً ولكن دون كره إن لم يستطع أن يكون محبوباً. فمن السهل أن تكون مرهوباً دون أن تكون مكروهاً.. وهذا ما ستصل إليه إذا امتنعت عن الإحسان لمواطنيك ورعيّتك ونسائهم، ومع ذلك عندما ستضطر إلى التصدّي لعائلة أحدهم، عليك أن تقوم بذلك عندما تمتلك التبرير المناسب والسبب الواضح.. ولكن انتبه فلا تقرب مالهم

وثرواتهم.. لأن الرجال ينسون موت والدهم أسرع مما ينسون إرثه المفقود. ثم إنَّ الأسباب والدوافع لنهب الأموال والثروات موجودةٌ دائماً... ومَن يبدأ بالعيش على النهب سيجد دائماً سبباً لذلك وبالتالي سيزول ملكه بسرعة كبيرة.

وهكذا نجد بأنَّه من الضروري للأمير الذي يقود الجيوش ويحكم عدد كبير من الجنود.. ألاّ ينزعج من لقب (القاسي) لأنَّه من دون هذا اللقب لن يكون لديه جيش موحّد ولن يستطيع قيادة فرقة أو حزب ما. وسنأخذ مثال على هذا واحد من التصرفات الرائعة لـ "هاني بعل" عندما كان يملك جيشاً ضخماً جداً فيه خليط من شعوب لا متناهية.. حينها قام بقيادته ليحارب في أرض غريبة... ولم يبدي "هاني بعل" إي تسامُح... لا فيما بين الجنود ولا في مواجهة الأمير.. لا في السرّاء ولا في الضرّاء... وهذا ما لا يمكن أن يتولّد إلاّ عن قسوته كلمة واحدة. فبالإضافة إلى ميّزاته التي لا حصر لها.. جعلته هذه القسوة محترماً مرهوباً دائماً في نظر جنوده... ومن دون هذه القسوة لن تكون ميّزاته الأخرى كافيةً أبداً لترك هذا الأثر العظيم وقد أدان بعض الكُتّاب تصرفاته.. ولكنهم من جهة أخرى كانوا معجبين بهذه التصرفات.

في الواقع إن هذه الفضائل غير كافية ويمكننا أن نبحث في ذلك مع شخصيّة "سيبيون" وهو شخص نادر الوجود، ليس فقط في عصره وإنَّما في تاريخ الرجال. لقد تمرّدت الجيوش في "إسبانيا" وهذا الأمر لم ينتج عن شيء سوى عن شفقته المُفرطة... التي أعطاها لجنوده... مانحاً إيّاهم حرّية لا تتناسب مع التربية الحربيَّة. وهذا ما جعل "فابيوس ماكيسموس" من مجلس الشيوخ يلومه ويدعوه "بمُفسد الميليشيا الروماني". لقد دمّرت مدينة "لوكرس" مع أحد مساعديه لكنها لم تنتقم.. ولم يَقُم سيبيون بمعاقبة هذا المساعد على وقاحته.. كل هذا كان بسبب طبيعة هذا القائد السهلة. حتّى أن شخصاً ما أراد التماس العذر له أمام مجلس الشيوخ فقال أنَّ "سيبيون" كان واحداً من

الرجال الكثيرين الذين لا يعرفون ارتكاب الخطأ بقدر ما يعرفون تصحيحه. وقد دنّست هذه الطبيعة مع الوقت سمعة ومجد "سيبيون" ولكنه كان مستمراً في السلطة مع هذه الطبيعة اللينة جداً.

إلاّ أنَّ وجوده تحت إمرة مجلس الشيوخ أخفى هذه الصفة الضارّة... ولم يكتفي بذلك... بل إن وجوده هذا قد ساهم في منحه المجد...

اختم بالقول.. فيما يتعلّق بالكون محبوباً أو مرهوباً.. فعلى الأمير العاقل الحكيم أن يرتكز على ما لديه وليس على ما لدى غيره.. لأن الناس يُحبّون الأمير على هواهم ويهابونه على هواهم... وهكذا لا يبقى أمام الأمير سوى الابتعاد عن أن يكون مكروهاً أو محقوداً عليه.

-١٨-

كيف يجب على الأمراء أن يلتزموا بعهودهم

من الصفات المحمود وجودها عند الأمير هي الحفاظ على العهد والعيش بنزاهة بعيداً عن المكر والخداع والاحتيال... بهذه الطريقة سيفهمه كل شخص بوضوح...

وإذا نظرنا إلى أمراء عصرنا سنجد أنهم يقومون بأعمال عظيمة دون التقيّد بوعودهم كثيراً، لأنهم يعرفون كيف يحتالون على عقول الناس.. وفي النهاية ينتصرون على مَنْ يعتمدون على الصدق والإخلاص.

إذاً... هناك نوعان من المعارك.. واحدة مع القانون والأخرى مع القوّة. المعركة الأولى خاصة بالإنسان.. والثانية خاصّة بالحيوان. لكن بما أنَّ الأولى قد أثبتت عدم كفايتها مراراً فقد أصبح من الأفضل اللجوء للأخرى... ومن الضروري للأمير أن يعرف جيداً كيف يستخدم النوع الخاص بالحيوان والآخر الخاص بالإنسان. وقد لُقِّن هذا الجزء للأمراء بكلام مبطّن من قِبَل الكتَّاب القدماء الذين كتبوا أنَّ "آخيل" وعدد آخر من الأمراء القدامى الذين كانوا من مدرسته أوحي لهم من "شيرون" الذي خلق شخصية "السنتور"[١] وبذلك يكون معلم "آخيل" كائن نصفه حيوان ونصفه إنسان وهذا ليس له أي معنى آخر.. إلاّ أنَّه على الأمير أن يعرف كيف يستخدم الطبيعة الأولى والثانية مع العلم بأن الواحدة منهما لا تدوم دون الأخرى.

---

(١) . وحش أسطوري ابن إله "كرولوس" الذي علّم "آخيل" و"اسكليبيوس" و"جازون" وهو كائن نصفه إنسان ونصفه فرس.

ولمعرفة الاستخدام الجيد للحيوان.. على الأمير أن يأخذ مثالاً له الثعلب والأسد، فالأسد لا يستطيع تجنُّب الفخاخ.. والثعلب لا يمكنه مقاومة الذئب.. وهكذا عليه أن يكون ثعلباً ليتعرّف على الفخ وأسداً ليُرعب الذئب[1]. أمّا من ضل يتمسَّك بما يأخذه من طبع الأسد ببساطة لن يستفيد شيئاً من ذلك.

بالنتيجة.. لا يستطيع كما لا يجب على السيد الحكيم أن يلتزم بوعده عندما سيتحوّل ذلك الالتزام ضدَّه أو عندما تنتفي الأسباب التي جعلته يعد. ولو أنَّ الناس جميعاً طيبون وجيدون لكان هذا المبدأ خاطئ.. ولكنهم سيئون ولا يلتزمون بوعودهم اتجاهك... فلا تلتزم أنت بدورك اتجاههم. فدائماً ستجد، أنت الأمير، أسباب شرعيّة لا حصر لها تساعدك في زخرفة مخالفتك للوعد.

وعن هذه الناحية يمكننا أن نُعطي أمثلة حديثة كثيرة جداً.. وأن نُظهر كم من المعاهدات والوعود أصبحت باطلة ودون جدوى بسبب عدم إخلاص الأمراء.

إنَّ الذي يعرف استخدام طريقة الثعلب ينجح بشكل أفضل... ولكن من الضروري أن يعرف جيداً كيف يزيّن هذه الطريقة وكيف يكون مُتظاهراً أو بالأصح جيداً مُنافقاً كبيراً، فالرجال بُسطاء جداً، ويطيعون الضرورات الراهنة... بحيث أنَّ ذلك الذي يخدع سيجد دائماً شخصاً ما يترك نفسه ضحيّةً لخدعته.

ولا أريد أن أُغفل هنا مثالاً حديثاً.. "ألكسندر السادس" لم يقم بشيء آخر.. ولم يفكّر بشيء آخر سوى خداع الرجال، وكان يجد دائماً موضوعاً

---

1. استوحى "ميكافيللي" من كتاب "سيسرون"،"الواجبات" ١ - ٤١: "يمكن أن نكون غير عادلين بطريقتين إمّا العنف أو الحيلة.. الحيلة عمل الثعلب والعنف عمل الأسد، والأولى والثانية هما الشيئان الأكثر غرابة في الإنسان، ولكن الاحتيال هو الشيء المكروه بشكل أكبر بينهما".

يُساعده على القيام بالخدعة. وليس هناك رجل يسخّر بفعالية أكثر.. ولا يؤكّد شيئاً بإيمان أعظم.. ثم لا يلتزم به مثله. ومع ذلك كانت خدعه تنجح دائماً كما كان يتمنَّى، لأنَّه كان يعرف جيداً هذه الناحية من العيش.

إذاً ليس من الضروري على الأمير أن يملك كل الصفات الآنفة الذكر، لكن من الضروري له أن يتظاهر بامتلاكها.. حتّى أنني سأتجرأ على القول بأن هذه الصفات ضارة إذا ما امتلكها المرء والتزم بها دائماً... أمّا إذا تظاهر بامتلاكها فإنها ستبدو كأنها صفاته الحقيقية وسيظهر بمظهر الشفوق والوفي والكامل والمتديّن.

في الواقع.. إن امتلاك الإنسان لكل هذه الصفات شيء جيد.. لكن بشرط أن يعرف كيف يمتلك عكسها عندما يتطلب الأمر ذلك أو عندما لا يحتاج الوضع لأن تكون فيه هذه الصفات الحسنة.. وهذا ما يحتاج إلى عقلٍ مدرّب.

وعلى الأمير، وخاصة الأمير الجديد ألاّ يتقيّد بكل الأشياء التي يدعوها الرجال بالأمور الجيدة للأمير. ما دامت ضرورة حفظ دولته تدعوه إلى القيام بما يخالف عهده وما يعاكس الإحسان والإنسانيّة والدين.. لهذا عليه أن يكون ذو عقل مستعد للالتفات بحسب رياح القدر وتغييرات الأشياء. وكما قلت سابقاً، لا تترك الخير أيها الأمير عندما يمكنك ذلك، لكن عليك أن تعرف كيف تُدخل الشر عندما تحتاج إلى وجوده.. أي عندما يكون ضرورياً.. واحذر أن يخرج من فمك شيءٌ لا يظهرك بمظهر من يملك تلك الصفات الخمس الآنفة الذكر..من شفقة وإخلاص وكمال وإنسانية وتديّن.. فليس هناك ما هو أهم من الظهور بامتلاك هذه الصفات.. لأن الناس بشكل عام يحكمون بعيونهم أكثر مما يحكمون بأيديهم.. فالرؤية ممكنة للجميع لكن قليلون هم الذين يحسّون.. الكل يرى ما تُبديه وقلائل فقط هم الذين

يُدركون ما أنت عليه ودائماً لا يتجاسر هؤلاء القلّة على معارضة رأي الأكثريَّة الذين يشكلون عَظَمَة الدولة التي بدورها تُدافع عنهم.

وفي أفعال الرجال وخاصة الأمراء ليس هناك محكمة "لهذه الأفعال" بجانب مَن يصرّح لكن لننظر إلى نهاية هذه التصريحات هل هي أفعال أم ماذا؟.

إذاً حين يعمل الأمير للحفاظ على الدولة ولنصرها.. يُحكم على وسائله مهما تكن بأنها شريفة ومحمودة.. ويثني عليها كل شخص. لأن السوقي لا يؤخذ إلاّ بما يُظهره وما ينتج عنه.. وليس هناك في العالم إلا السوقيين.. لذلك لا مكان لغير السوقي في هذا العالم فالعدد القليل ليس له مكان عندما يستند عليه العدد الكبير.

ومن هنا أقول أن بعض الأمراء في عصرنا.. ولا أفضِّلُ تسميتهم[1].. لا يعظون بشيء غير السلام والإخلاص.. وفي الحقيقة هم أعداء لدودين لهذا السلام والإخلاص. فلو أنّهم قد التزموا بهذين الأمرين.. لانتُزعتْ دولهم وسمعتهم منهم على الفور.

(١) . " فرديناند" ملك إسبانيا دون شك.

-١٩-

كيف يجب تجنُّب الاحتقار والحقد

بما أنني قد تحدثت فيا سبق عن الصفات الأكثر أهمية. أودُّ الآن أن أناقش باختصار صفات أُخرى تحت هذه العموميات:

إنَّ الأمير وكما قلتُ سابقاً يتجنَّب الأمور التي تجعل منه مكروهاً ومحتقراً.. وفي كل المرّات التي يتجنَّب بها ذلك.. يقوم بعمله على أتم وجه دون أن يواجه أي خطر على سمعته.

الجشع واغتصاب أملاك ونساء الرعّية أمورٌ تجعله مكروهاً كما قلتُ سابقاً لذلك عليه تجنّبها... فطالما أنَّك، أيها الأمير، لم تمس شرف الرجال أو ممتلكاتهم، فإنهم سيبقون مسرورين راضيين.. ولن تواجه حينها إلاّ بعض الطامعين الذين يمكن كبحهم بسهولة وبعدّة وسائل.

أمَّا الصفات التي تجعلك مُحتقراً والتي يجب عليك تجنّبها.. فهي عدم الوعي، وخلو البال والتخنيث، والتهرّب من المسؤوليات، والتردد.. فإنها تشكّل حجر عثرة في طريقك ومن هنا ـ فإنه عليك أن تبذل جهدك فيما تُظهره من عظمة وشجاعة وجدّية وقوّة في تصرّفاتك.. وأن تسعى ليكون حكمُكَ باتٌ لا رجعة عنه بالنسبة للأعمال السيئة الخاصة بالرعيّة.. وعليك أن تثبت على رأيك فلا يعود مَنْ يجرؤ على التفكير بخداعك أو غشك.

أميرٌ كهذا سيكون مشهوراً جداً... وضد المشهورين يكون التآمر والقتال صعباً لأننا نعلم أنهم متميزون ومحترمون ومحترمين من أتباعهم.

فعلى الأمير أن يخشى أمرين: الأول في الداخل ويتعلّق بالرعيّة.. والآخر في الخارج ويتعلّق بالطغاة الخارجين ومن هؤلاء يحمي نفسه بالجيش الجيّد

والأصدقاء الجيدين.. وإن كان له جيش وسلاح جيد سيكون له أصدقاء جيدون.

وطالما أن الأمور مستقرة في الخارج فهي مستقرّة في الداخل.. إلاّ إذا شوشتّها دسيسةٌ ما، وعندما تبدأ الأمور الخارجيّة بالتحرّك فإنّه سيصمد دائماً في وجه كل الهجمات (إذا عاشَ ونظّم أموره، كما قُلتُ، ولم يستسلم) وهذا ينطبق على مثال "نابيس" في (إسبارطة) الذي أوردته سابقاً.

أمَّا فيما يخصُّ الرّعيّة.. وعندها بإمكانه أن يطمئن بابتعاده عن الكره والاحتقار بشكل كافٍ، ويتحقق ذلك عندما يجعل الشعب راضياً عنه.. وهذا ما يجب على الأمير أن يسعى إليه مطوّلاً، ومن أكثر العلاجات فعاليّة ضد الدسائس هي ألاّ يكون الأمير مكروهاً من كل الشعب، لأن مَنْ يُحيك المكائد يعتقد دائماً أنّه يرضي الشعب بموت الأمير... لكن إذا آمن بأنه سيزعجه بذلك وسيسبب له الضرر، فإنّه لن يتجرّأ على القيام بمثل هذا العمل... لأن الصعاب التي تولّدها المكائد لا متناهيّة... ومن خلال الخبرة نجد أن هناك الكثير من الدساسين ولكن القليلون منهم يستطيعون الوصول إلى نهاية سعيدة. فهذا الذي يحيك المؤامرة لا يمكنه البقاء وحيداً... ولا يمكنه أن يتخذ رفاقاً له سوى من أولئك الذين يُبدون استيائهم. فإذا كشفت أيها الأمير عن تفكيرك لأحد المتضررين فإنك ستمنح بذلك مادةً ليصبح راضياً بها... لأنه بهذا الإفصاح سيرى كل الأمل والرفاهية، سيرى أنّك تُعطيه الربح السريع، بينما تعطيه الدسائس والدساسون ربح غير مؤكّد ومليء بالمخاطر... ومن الأفضل له أن يكون صديقاً نادراً للأمير على أن يكون عدواً لدوداً له.

ولإيجاز الموضوع بالقليل من الكلمات أقول أنّه: في ناحية المكيدة ليس هناك سوى الخوف والحسد والتوجس من العقوبة التي تُرعبه.. بينما في ناحية الأمير هناك عظمة الإمارة، والقوانين وحماية الأصدقاء والدولة التي يدافعون

عنها. فتُضاف المحبة الشعبيّة إلى كل هذه الأشياء ليصبح من المستحيل على أي شخص مهما كان متهوّراً... أن يتآمر، لأنَّه من الدارج أن يختبر الدَّسّاس الخوف قبل تنفيذ الشر. وهناك عليه أن يخاف لأنَّ الشعب أيضاً أصبح عدواً له... في هذه الحالة لن يجد إي مَخرَج له بعد إتمام الجريمة.

وعن هذا الموضوع بإمكاننا أن نُعطي أمثلة لا حصر لها.. لكنني سأكتفي بواحد منها: السيّد "هانيبال بو نتيفو جليو" جَدُّ السّيد "هانيبال" الحالي، كان أميراً على "بولونيا" وقد قُتل من الـ "كانسشي" الذين تآمروا ضدّه... لذلك قتل الشعب كل الـ "كانسشي" بعد هذه الجريمة مُباشرةً. وفي حينها لم يكن هناك وريثٌ غير "جيوفاني" الذي كان طفلاً في القماط. وبما أنَّ مودّة الشعب كانت عظيمة... ولم يكن وقتها قد بقي من هذه الأسرة مَنْ يمكنه أن يحكم بعد وفاة "هانيبال"، فقد ذهب مِنَ البولونيين مجموعة إلى "فلورنسا" سعياً وراء مولود متحدّر من هذه الأسرة، أي أسرة "بو نتيفو جليو"، وهو مجرّد ابن حداد عادي وقد عمّت شائعة بوجوده في "فلورنسا". ثُم مُنح حكم الأمّة إلى أن وصل السّيد "جيوفاني" إلى العمر المناسب للحكم.

إذاً، عندما يكون شعبك مُحباً رؤوفاً ليس عليك إلاّ أن تقوم، في حالة المكائد، بالقليل... لكن إن كان شعبك عدوّك ويكرهك، فعليك أن تخشى كل الأمور والأشخاص. إنَّ الدول المنظَّمة جيداً والأمراء العقلاء يفكرون بكل اهتمام في ألاّ يجعلوا السادة يائسين، وفي أن يُرضوا الشعب ويجعلوه مسروراً، لأنَّ هذه من أهم الوسائل المساعدة للأمير.

من بين الممالك الجيدة التنظيم والحكم في عصرنا، مملكة "فرنسا" وفيها نجد إنشاءات جيدة لا متناهية، تتعلّق بحريّة وأمن الملك. وأولى هذه الإنشاءات هو البرلمان (المحكمة العُليا) وسلطته، فهو مَنْ يُنَظّم المملكة... ويعرف طموح السادة وسلطانهم لذلك فقد وجد أنَّه من الأفضل أن يلجم

أفواههم... كما كان على علم بكره الشعب للسادة القائم على الخوف... لذلك أراد طمأنتهم... ولم يرد أن يكون هذا هو الهمُّ الخاص للملك لكي يُجنّبه المسؤولية اتجاه السادة إذا قام (الملك) بإنصاف الشعب... واتجاه الشعب إن هو أنصف السادة. لذلك أقام هذا البرلمان لإيجاد حَكَمٍ مُحايدٍ[1] يقف في وجه السادة ويُنصف الصغار دون أن يكون هناك مسؤوليَّة على الملك. وفي الحقيقة... لم يسبق هذا أمرٌ أفضل أو أكثر حكمة، ولا وسيلةٌ أعظم للحفاظ على أمن الملك والمملكة.

ومن هنا... يُمكننا أن نستخلص شيئاً مهماً آخر: على الأمراء أن يُديروا بالأعمال المُنفِّرة من خلال الآخرين وليس بأنفسهم، وأن يحتفظوا لأنفسهم بالأعمال الممتعة التي تجعل الشعب يُحبهم. فعلى الأمير أن يحترم السادة لكن دون أن يولّد الكره في قلب الشعب ضدّه.

وسيبدو للكثيرين أن لديهم أمثلة معاكسة لرأيي هذا إذا ما تأمّلوا حياة وموت بعض أباطرة الرومان... لأنهم من خلال هذا التأمُّل سيجدون شخص ما عاش بتميّز دائم وأظهر فضيلة كبيرة في العقل.. ومع ذلك فَقَدَ سُلطته أو قُتِل من قِبَل أتباعه الذين تآمروا ضدّه. وللرد على هذه الاعتراضات سأناقش صفات بعض الأباطرة وسأُظهر أسباب دمارهم مثبتاً عدم اختلافها عن تلك المُحددة منْ قِبَلي... كما سأبرزُ بالمناسبة تلك الأمور المميزة لمن يقرأ أحداث هذا العصر. ولأحقق كل ما سبق فإنني سآخذ كل الأباطرة الذين تتالوا على السلطة من "مارك"، "كومود" ابن مارك "بيرثيناكس"، "جوليان"، "سيفير"، "انتونين كاراكالا" ـ ابن سيفير ـ، "ماكرين"، "هيليو جا بال"، "ألكسندر" و"ماكسيمين".

---

(١) . يتحدث هنا عن برلمان أُقيم من قِبَل "فيليب لوبيل" عام ١٣٠٤ وكانت مهمته أن يقيم العدل دون أن يكون له علاقة بالملك أو بالسادة الإقطاعيين.

بدايةً علينا أن نلاحظ كيف أن القتال ضد طموح السادة ووقاحة الشعب كان يكفي في الإمارات الأخرى.. لكن هذين الأمرين يضاف لهما صعوبة ثالثة لدى الأباطرة الرومان وهي المعاناة من قسوة وجشع الجنود ، وهذا أمرٌ صعبٌ وكان سبباً في دمار الكثير. لأن إرضاء الشعب والجنود معاً أمرٌ صعبٌ التحقيق فالشعب يحب الهدوء والسلام وبالتالي يجد أن الأمير المتواضع مريحٌ ومثالي له. بينما يميلُ الجنود إلى الأمير ذو العقل العسكري... إنَّه أميرٌ قاسي وفظٌّ وطماع.. والجنود يريدون من الأمير أن يُمارس صفاته هذه على الشعب لكي يتمكنوا - أي الجنود - من أخذ أجورٍ مضاعفة وهكذا يُشبعون قسوتهم وجشعهم.

ومن خلال هذه الأشياء نرى أن هؤلاء الأباطرة الذين ليس لديهم سُمعة وشُهرة عظيمة سواءً أكانت مُتوارثة أو مُفتعلة ومُستحدثة ، بإمكانهم أن يكبحوا بها الشعب والجنود ، وكأنهم بهذه الطريقة يسيرون إلى دمارهم.. فالكثيرون من بينهم وخاصة أولئك الذين وصلوا إلى الإمارة بجهودهم وليس عن طريق الوراثة.. يكرّسون جهودهم لإرضاء الجنود وليس الشعب، عندما يدركون صعوبة هذين الطبعين المتناقضين، دون أن يولوا للشعب إلاّ جزء يسير جداً من اهتمامهم. فمن وجهة نظرهم الجيش هو الجزء الأهم. فإن كان لا بد من وجود أُناسٍ يكرهون الأمير، فعليه أن يسعى لكي لا يكون هؤلاء الكارهون هم الجماعات والأحزاب، فإن لم يتمكّن من ذلك عليه أن يفرَّ بمهارة من كرههم وأن يحفظ نفسه منهم لأنهم الأكثر قوّة. والأمير بحاجتهم خاصةً إن كان حديث العهد. ومن هنا نرى هؤلاء الأباطرة بحاجة إلى مُساندة خارقة ، بسبب حداثتهم، لذلك يفضّلون الارتباط بالجنود أكثر من الشعب.

وقد كان هذا الارتباط مفيداً في بعض الأحيان... وفي أحيان أخرى لم يكن.. ويتحدد ذلك بحسب معرفة الأمير أو عدم معرفته لكيفية الحفاظ على سمعته ومجده إزاء جنوده. وللأسباب الآنفة الذكر كانت النهاية تعيسة لكل

من "بيرتيناكس" و"ألكسندر" باستثناء "مارك" بالرغم من أنهم جميعاً قد جاؤوا من حياة فقيرة متواضعة وهم بطبعهم مُحبين للعدل والإنسانيَّة والرأفة وأعداءٌ للقسوة. لكن "مارك"[1] وحده عاش ومات مُكرّماً لأنه وحده من بين هؤلاء الثلاثة منْ وصل إلى السلطة عن طريق الحق الموروث وليس عن طريق الجنود أو الشعب فلم يكن لأحدٍ فضلٌ عليه.. إضافةً إلى أنَّه يتحلّى بصفات جعلت منه رجلاً جديراً بالاحترام... لقد احتفظ هذا الإمبراطور طوال حياته بكلٍّ من الفريقين في مكانه المحدد دون أن يثير اتجاهه الحقد أو الاحتقار.

أمّا "بيرتيناكس"[2] فقد أصبح إمبراطوراً بعكس إرادة الجنود. الذين كانو مُعتادين على العيش بحريَّة في زمن "كومود" فلم يستطيعوا احتمال الحياة الشريفة التي أراد "بيرتيناكس" أن يسحبهم إليها وهكذا أصبح الجيش يكرهه إضافةً إلى كونه مُحتقراً لكبر سنّه.. ومنذ أن استلم السلطة كان يسير إلى دماره.. وهنا تجدرُ الملاحظة إلى أنَّ الكره قد يكتَسبُ بالأعمال الجيدة.. كما يُكتَسبُ عادةً بالأعمال السيئة.. لذلك يجب على الأمير أن يجتهد بألاّ يكون جيداً إذا أراد الاحتفاظ بدولته كما قُلنا سابقاً... لأنَّه إذا كانت القوى والتنظيمات التي تحكمها فاسدةً سواءً أكانت جيش أم شعب أم سادة.. وأنتَ بحاجة لهم لكي تُحافظ على نفسك، فمن الأفضل لك آنذاك أن تتبع مزاجهم لتُرضيهم وبالتالي ستكون الأفعال الجيدة مضرةً لك.

لنأتي الآن إلى "ألكسندر"[3] الذي كان إمبراطوراً جيداً جداً حيث أنّه من بين كل الإطراءات والثناءات التي ارتبطت به كان له ميّزة رائعة.. فخلال الأربعة عشر عاماً التي كان فيها في السلطة، لم يُقتَل شخصٌ من قِبَلهِ دون

---

(١) . "مارك أوريال" (١٢١- ١٨٠): ابن مُتبنَّى لـ "أنتوني" وهو مؤلّف كتاب "الأفكار".

(٢) . "بيرتيناكس" (١٢٦ – ١٩٣): إمبراطور بعد اغتيال كومود، قتله حرس القصر.

(٣) . "ألكسندر سيفير" (٢٠٨ – ٢٣٥): أصبح إمبراطوراً بإرادة جيش القيصر الذي قتل ابن عمّه "هيليو كابال"، أصرَّ على إعادة تشكيل الجيش لكنه مات مُغْتالاً.

مُحاكمة.. لكنَّ الجيش تآمر ضدّه وقتله لأنه رآه مخنّثاً وتاركاً نفسه ينساق لإدارة والدته وهذا ما جعله مُحتقراً أيضاً.

أمّا بالنسبة لصفات وميّزات "كومود" و"سيفير" و"أنتونين كاراكلا" و"ماكسيمين" فإنهم جميعاً قُساةٌ جداً وجشعون.. وقد قاموا بكل أنواع الجور والضرر التي يستطيعونه ضد الشعب لكي يُرضوا الجيش. وكانت نهاياتهم جميعاً تعيسة ما عدا "سيفير" لأنَّه كان فاضلاً وصالحاً جداً لدرجة أنَّه استطاع دائماً أن يحكم بسعادة مُحتفظاً بصداقة جنوده. وبالرغم من الأعباء التي كان يفرضها على الشعب، فقد جعلته هذه الفضائل موضع إعجاب من الجنود والشعب الذي استمرَّ مُعجَبَاً وأحمقاً عن طريقة بعض الوسائل... بينما ظلَّ الجنود راضين يُظهرون الاحترام.

فقد كانت تصرفاته، بالنسبة لأمير جديد مثله، عظيمة وملحوظة.. وهُنا أودُّ أن أُبيّن باختصار كم عرف هذا الإمبراطور كيف يستخدم صفات الأسد والثعلب. فقد أشرت سابقاً إلى أهميّة تقليد هاتين الطبيعتين بالنسبة للأمير: عندما كان، أي "سيفير"[1]، قائداً في "سلافوني"... وبعد أن رأى تكاسُل الإمبراطور "جوليان"، أقنع جيشه بأنَّه من الأفضل لـ "روما" أن تنتقم لموت "بيرتيناكس" الذي كان قد قُتِل من جنود القيصر، فقام تحت هذه الحجّة ودون أن يُظهر رغبته بالسلطة... بتحريك جيشه لمهاجمة "روما"، وأصبح في "إيطاليا" قبل أن يُعلن عن قدومه، وبوصوله إلى "روما" انتُخِبَ إمبراطوراً من قِبل مجلس الشيوخ بدافع الخوف... ثم قُتِلَ "جوليان".

بعد هذه البداية لم يبقى أمامه إلاّ صعوبتان عليه تخطّيهما ليصل إلى سيادة كل الدولة: الصعوبة الأولى في "آسيا" حيث "نيجر" قائد الجيوش الآسيويَّة، الذي كان قد نودي به إمبراطوراً والصعوبة الثانية في "بونان" حيث

(١) "سيبيتيم سيفير" (١٤٦ – ٢١١): أُعلن إمبراطوراً مِنْ قِبَلِ جيوشه.

كان "ألبين" الذي كان يصبوا أيضاً إلى السلطة.

وبما أنّه قد استشفَّ خطورة الكشف عن نفسه كعدو للاثنين... فقد قرر أن يُحارب "نيجر" ويخدع "ألبين".. فكتب لهذا الأخير بأنَّه قد انتُخبَ إمبراطوراً من مجلس الشيوخ، وأنّه يريد تقاسم هذه المسؤولية معه... فبعث له لقب "قيصر" وضمَّه كشريك له بقرار من مجلس الشيوخ. وصدَّق "ألبين" بدوره كل هذه الأمور وقَبلها بشكل جدّي.

وبعد أن انتصر (أي سيفير) وقُتِلَ "نيجر" وهدأت الأوضاع في الشرق، تحوّل "سيفير" عن الأوضاع الشرقيّة إلى "روما"، واشتكى لمجلس الشيوخ بأن "ألبين" يسعى إلى قتله غدراً دون الاعتراف بأفضاله عليه ولذلك فهو مضطرٌ لمعاقبته على نكرانه للجميل، فذهب لملاقاته في "فرنسا" وأخذ منه الدولة والحياة معاً.

مَنْ ينظُرُ إلى تصرّفات "سيفير" بدقّةَ، يجده أسداً شرساً جداً وثعلب مُحتال للغاية.. ومع ذلك فهو مخشيٌّ ومحترمٌ من كل شخص وليس مكروهاً أبداً من جيوشه. وهكذا ومن خلال كل هذا، لن يُدهش المرء من أنَّ "سيفير" الرجل الجديد في السلطة قد استطاع الحصول والاحتفاظ بهذا القدر من السلطة لأن سُمعته الكبيرة جداً تُدافع عنهُ دائماً وتحفظه من هذا الحقد الذي يُمكن أن يشعر به الشعب بسبب النهب والسرقات.

أمّا ابنه "أنتونين"[1] فقد كان أيضاً رجلاً بميّزات ممتازة جداً ولهذا فقد كان موضع إعجاب الشعب ومقبولاً من الجنود...

لقد كان "أنتونين" رجل جيش[2] يحتمل كل أنواع العناء ويحتقر كل ما

---

(١) ـ "أنتونين كاراكلا" (١٨٦ – ٢١٧): قتل أخاه وأقام سلطته على أساس الجيش والعنف، ثم اغتاله "ماكرين".

(٢) ـ "رجل جيش" أي "رجل حرب" أي شخص خبير وجُندي جيّد وموهوب بأنظمة القتال والتنظيمات العسكريَّة.

هو منمَّق ومرفّه.. وكل أنواع النعم الأخرى... وهذا ما جعله محبوباً من كل الجيوش، إلاّ أنَّ بسالته وقسوته كانت كبيرتان جداً وخارقتان لدرجة أنَّه بعد عدد لا نهائي من القتلى المميزين.. قتل قسماً كبيراً من شعب "روما" وكل شعب الإسكندريّة. وهكذا أصبح مكروهاً جدّاً من كل العالم وبدأ يخشاه الجميع حتّى أولئك الذين يحيطون به... مما أدّى إلى قتله من قِبَلِ قائد المئة (قائد سريَّة عند الرومان) في وسط جيوشه.

في الواقع إن مثل هذه الميتات تكون محتومة على الأمراء وخاصة إن كانت صادرة عن قرار لعقل متصلّب.. لأن من لا يَحسُبْ لموته يمكن أن يسبب هذا الموت له الإهانة. لكن على الأمير أن يخاف ذلك أقل بكثير مما يخافه غيره لأن هذه الميتات نادرة. إذاً ليس عليه إلاّ أن يتجنَّب إلحاق الضرر بأحدٍ من أولئك الذين يخدمونه والذين حوله وفي خدمة إمارته. كما فعل "أنتونين" حيث قتل شقيق قائد أحد السرّيات وبشكل مهين، وقد كان يهدده كل يوم وبقي مع ذلك يستخدمه كحرس شخصي له.. وهذا هو جزاء التهوّر الذي قاده إلى الهلاك، كما حدث معه، حيث قتله قائد تلك السرّية.

لننتقل الآن للحديث عن "كومود"[1]... لقد كانت لديه سهولة كبيرة في امتلاك السلطة، لأنّه ابن "مارك أويل" وهذا حقّه الموروث، وكان يكفي بالنسبة له أن يتبع أثر والده ليكون راضياً كما كان شعبه وجيشه، لكن فكره القاسي والحيواني قاده إلى استخدام جشعه ضدَّ الشعب وإلى تنمية علاقته بالجيش وجعله مُطلق الحرّيّة... هذا من جهة.. أمّا من جهة أخرى فقد استخفَّ بمركزه فكان ينزل غالباً إلى حلبات المصارعة مع المصارعيين (الغلاديترز) كما قام بأشياء أخرى دنيئة جداً وغير ملائمة لعظمته

---

(١) . "كومود" (١٦١ – ١٩٢) ابن "مارك أويل"، إمبراطور في عام (١٨٠) مات مخنوقاً من قِبَلِ مصارع تآمر ضدّه مع عدد من المواطنين المحكومين بالموت.

الإمبراطورية، لذلك أصبح مُحتقراً من جهة ومكروهاً من جهة أخرى وبالنتيجة تآمروا ضدّه وقتلوه.

لم يبقَ لنا سوى أن نتحدث عن صفات "فاكسيمين"[(١)] الذي كان شرساً جداً، وكانت الجيوش قد سأمت من رخاوة ولين "ألكسندر" التي ناقشناها سابقاً. وما إن مات "ألكسندر" حتّى سارعت الجيوش بانتخاب "ماكسيمين" وتسليمه السلطة.. لكنه لم يبقى فيها زمناً طويلاً لأن شيئين جعلاه مكروهاً ومُحتقراً: الأول أنّه من أصل دنيء جداً.. فقد كان راعياً للخراف في "تيراس" وكان ذلك أمراً معروفاً جداً.. والأمر الآخر أنّه أخّر في بداية حكمه الذهاب إلى "روما" والدُخول في مُلكيّة العرش الإمبراطوري فأعطى بذلك فكرة عن نفسه بأنّه قاسٍ جداً. وقد مارسَ في "روما" من خلال ولاته قساوات مُتعددة جداً... وهكذا تمّرد الجميع ضده بدافع الاحتقار لدناءة أصله وبدافع الكره له والخوف من بسالته. وبدأ التمرُّد من "إفريقيا"، ثم تآمر مجلس الشيوخ وكل الشعب في "روما" وفي "إيطاليا" ضدّه. إضافة إلى جيشه الخاص الذي تعب وملَّ من قسوته خاصةً أثناء حصاره "أكيلي" حيث كان يجد صعوبةً في احتلالها. كما كان يرعبه قليلاً بنظرته إليه كعدو له وليس كجيش خاص ومُدافع.. لذلك قرر هذا الجيش قتله وفعلاً كان ذلك.

بالنسبة لـ "هيليوجابال" فلا أريد أن أتحدَّث عنه ولا عن "ماكرين" ولا "جوليان"[(٢)] الذين دُمّروا مباشرةً لأنهم مُحتقرين كليّاً... إلاّ أنني سأختم بهم هذا الفصل.

1. "ماكسيمين (١٧٣ – ٢٣٨): نودي به إمبراطوراً من قِبَلِ جنوده الذين قتلوا (ألكسندر)، لم يعش في "روما"، حارب "الألمان" ومات مقتولاً أيضاً من قِبَلِ جنوده.

2 "ماكرين" استمر إمبراطوراً لمدّة سنة، "هيليوجا بال" ٤ سنوات، "جوليان" بضعة أشهر فقط.

لقد قلتُ أن أُمراء عصرنا هذا لا تلك الصعوبة الخارقة في إرضاء الجنود في حكوماتهم لأنَّه بالرغم من ضرورة وجود بعض الاعتبارات اتجاههم، إلاّ أنَّ ذلك ينحلُّ سريعاً. ولا يجمع أحداً من هؤلاء الأمراء جيوشه التي أُنشأت في الحكومات والإدارات.. داخل المقاطعات كما كانت حال الجيوش في الإمبراطوريَّة الرومانيَّة.. لذلك، إن كان آنذاك من الضروري إرضاء الجنود أكثر من الشعب، فإنه الآن بالعكس... أي يجب على الأمراء، ما عدا "الترك" والسلطان[1] أن يسعوا لإرضاء الشعب، لأن سلطة وقوّة الشعب أكبر من سلطة الجنود وقوّتهم. وقد استثنيت "الأتراك" لأنّه دائماً عندهم اثناعشر ألف جندي مشاة وحوالي خمسة عشر ألف فارس يُحشدون حول الأمير لضمان أمن مملكته وقوّتها... لذلك يتوجّب على الأمير هنا أن يحافظ على صداقة هؤلاء قبل كل شيء. وهكذا نجد أن مملكة السلطان تقع بشكل كامل بين يدي الجنود.. ومن الأفضل له أن يسعى لكسب ودّهم دون أخذ الشعب بالحسبان.

إنَّ دولة السلطان هذه مُختلفة عن كل الإمارات الأُخرى لأنها مُشابهة للزعامة الدينية المسيحيَّة التي لا يُمكن تسميتها لا إمارةً موروثة ولا إمارة جديدة وفيها لا يرث الأبناء الحكم ولا يستمرون كسادةٍ أشراف من بعد آبائهم. بل يُنتخب لهذا المركز واحد ممن يكونون حول الأمير السابق وهذا نظام قديم لذلك لا يمكن دعوته إمارة جديدة ولا نجد فيه أيّاً من الصعوبات التي نجدها في الإمارة الجديدة. لأنَّه إن كان الأمير جديداً جداً، فإنَّ ترتيبات وأنظمة هذه الدولة تكون قديمة بالية ومنظّمة لاستقباله كشريف موروث (ولي عهد).

1- "سليم الأول"، الترك والسلطان، وملك مصر المُنتخب من المماليك وفرسان الميليشيات المصريّة القديمة.

لنعود إلى موضوعنا... لقد قلت بأنَّه أيّاً كان مَنْ سيتأمّل كل ما سبق، سيجد أنّ سبب انهيار الأباطرة الآنفي الذكر هو إمّا الكره أو الاحتقار. وسيعرف أيضاً لماذا تصرّف البعض منهم بطريقة، بينما كان الآخرون يتصرفون بشكلٍ مُخالف... ومهما تكن الطريقة التي سلكوها، فقد وصل البعض منهم إلى نهاية سعيدة.. بينما لم يلقى الآخرون إلاّ النهاية التعيسة.

"بيرتيناكس" و"ألكسندر" أُمراء جُدد لذلك من غير النافع لهم.. لا بل من المضر أن يقلّدوا "مارك" الذي كان في الإمارة بحق الوراثة.. والوضع مُشابه بالنسبة لـ "كاراكلا" و"كومود" و"ماكسيمين" فإنَّ تقليد "سيفير" أمر مؤذي لهم.. فليس لديهم الفضيلة الكافية لاقتفاء أثره.

بالنتيجة.. الأمير الجديد في الإمارة الجديدة لا يستطيع تقليد صفات "مارك".. وليس من الضروري إطلاقاً له إتباع تصرفات "سيفير"، لكن عليه أن يأخذ من "سيفير" الأجزاء الضروريَّة لتأسيس دولته، ومن "مارك" تلك المناسبة والتي تُعطي المجد والعظمى للحفاظ عليها بعد أن يكون قد رسّخ بنيانها ووطّدها.

-٢٠-

هل الحصون والأشياء الأخرى التي يقوم بها الأمراء يومياً نافعة أم ضارة ؟

لكي يحافظوا على الدولة في أمان واستقرار قام بعض الأمراء بتجريد رعاياهم من السلاح، بينما قام آخرون بتقسيم المدن الخاضعة لهم.. وغيرهم قاموا بتغذية الأحقاد ضدهم.. وآخرون سعوا لكسب المشتبه بهم منذ بداية ولا يتهم... فيما قام البعض بتشييد الحصون وجاء غيرهم فهدمها وأفناها.

إلاّ أنَّه لا يمكننا إعطاء حكم محدد فيما يخص كل هذه الأشياء، إذا لم نتفحّص التفاصيل التي كانت في هذه الدول حيثُ يجب أن تؤخذ القرارات المشابهة.

في هذا الفصل سأتحدّث بهذه الطريقة الموسعة بقدر ما تسمح به هذه المادة نفسها: إنَّ الأمير الجديد لا يجرّد رعيته من سلاحهم، بل على العكس يسلّحهم دائماً إذا كانوا عُزَّل لأنَّه بهذه الطريقة يكسب السلاح إلى صفّه ويُصبح في خدمته.. وهكذا يُصبح المشتبه بهم أوفياء، والأوفياء يحافظون على وفائهم، ويُصبح لديه أنصار من الرعّية. لأنَّه لا يمكن تسليح كل الشعب.. فإن الأمير سيكون بأمان أكثر عندما يُحسن لمن يُسلّحهم، وهذا التمييز في طريقة المعاملة تجعل أولئك المُعترفين بفضلك أكثر خضوعاً.. بينما سيعذرك الآخرون، معتبرين أنّه من الضروري أن ينال مَنْ يتعرّض للمخاطر أكثر.. ويخضع للمُرغِمات أكثر من غيره... تكريماً زائداً عن غيره.

لكن عندما ينزع الأمير السلاح من رعيّته... يبدأ بإهانتهم وإيذائهم... ويظهر عدم ثقة بهم... إمَّا استخفافاً وتحقيراً، أو تخويناً... وسواءً كانت الأولى أو الأخرى فإنهما سيولّدان اتجاهه الكره والبغضاء. وبما أنَّك، أيها الأمير، لا تستطيع أن تبقى أعزلاً... فإنك لن تجد أمامك غير ميليشيات المرتزقة التي تحدثنا عنها وعن ميّزاتها سابقاً... وحتّى إن كانت هذه الميليشيات جيدة فإنها لن تستطيع حمايتك من عدو قادر قوي.. ومن رعيّة مُشتبه بهم. لذلك... على الأمير الجديد في الولاية الجديدة أن ينظّم جيشاً، والتاريخ مليء بأمثلة تؤكّد صحة وفائدة ذلك.

أمّا إن اكتسب الأمير دولةً جديدة وضمّها كعضو في دولته القديمة... فيجب عليه في هذه الحالة أن ينزع السلاح من هذه الدولة.. باستثناء أولئك الذين ناصروه وأعانوه في احتلالها. ولكن عليه أن يجعل هؤلاء خاصةً ضعفاءً ومخنثين مع الزمن وحسب الظروف. كما يجب عليه تنظيم هذه الدولة بحيث يكون جيش الدولة كلها هو فقط الجيش المكوّن من الجنود الخاصين الذين كانوا يعيشون بجانبه في الدولة السابقة.

لقد كان أسلافنا الحكماء يقولون بأنه عليك أن تحصل على "بيستول" بالأحزاب وعلى "بيز" بالحصون... لذلك كانوا يُغذُّون الخلافات في بعض المدن الخاضعة لهم... فهم بذلك يمتلكون هذه المدن بشكل أسهل... وكان هذا أمر جيد في الزمن الذي كانت فيه "إيطاليا" متوازنة نوعاً ما. لكنني لا أعتقد أنّه بإمكاننا اليوم أن نجعل ذلك مبدأً فالتقسيم برأيي لا يُعطي نتائج جيدة. على العكس فإن المدن المنقسمة تسقط فوراً عندما يدنو العدو منها... لأن الفئة الأضعف فيها تنضمُّ دائماً للقوّة الخارجيّة... وبذلك تُصبح الفئة الباقية غير قادرة على التماسك والمحافظة على نفسها.

أهل "البندقيَّة" التزموا[1] بالأسباب الآنفة الذكر، كما أعتقد، لذلك كانوا يُغذُّون الفئات المتناحرة والمتنافسة "جيلف وجيبولين" في المدن الخاضعة لهم، ومع أنّهم لم يتركوهم في نزاع إلى حد القتال فيما بعد، إلاّ أنّهم غذّوا بينهم هذه الأحقاد ليبقوا مُنشغلين بخلافاتهم ولا يتحدوا أبداً ضدهم، وهذا ما لم يلائمهم أبداً فيما بعد، كما رأينا، لأن بإنهزامهم (أي أهل البندقيّة) أمام "فايلاً"، تجرأ عليهم قسم من هذه الفئات المتناحرة واستولى على الدولة. وبهذه الطريقة كُشف عن ضعف الأمير، لأنّه في الإمارات القويّة لا يُسمح بمثل هذه التقسيمات... لأنَّه لا يمكن الاستفادة منها إلاّ في وقت السلم... فمن خلالها يمكن السيطرة على الاتباع بسهولة أكبر... لكن عندما تأتي الحرب يُظهر مثل هذا النظام بطلانه وعدم صلاحيته.

دون شك، إنَّ الأمراء يصبحون عظماء عندما ينتصرون على الصعوبات والمعوقات التي تُقام في وجههم، لذلك تجد أنّه عندما يريدُ القدر أن يجعل من الأمير الجديد رجلاً عظيماً، وهو بحاجة لاكتساب السمعة أكثر من الأمير بالوراثة، فإنه يضع في طريقه الأعداء ويجعلهم يقومون بمؤامرات ضده ليكون ذلك سبباً لقتالهم والنصر عليهم. وهكذا ينحدر العدو وترتفع مكانة الأمير[2] ومن هنا... فإن الكثيرين يرون أنّه يجب على الأمير الحكيم... أن يتظاهر بعداوةٍ ما، عندما تتاح له الفرصة المناسبة، ليتمكّن فيما بعد من دحرها فتزداد عظمته بذلك.

الأمراء.. وخاصة الجدد منهم، يجدون إخلاصاً ومنفعةً عند مَنْ كانوا يشتبهون بهم في بداية دولتهم، أكثر مما يجدون عند أولئك الذين أظهروا

1- حزبان يجسدان النزاع والمنافسة بين الإمبراطورية والباباوية على الأرض الإيطالية بين القرن الثالث عشر والرابع عشر.

2- العلاقة بين الفرصة والفضيلة، مُبيّنة في الفصل السادس، إنَّ الأوضاع الأكثر ملائمة لتصرّف الأمير الجديد تتوفّر أحياناً في زمن محدد.

الثقة والوفاء في البداية فمثلاً "بوندولفو بيتروكسي" أمير "سيان" استطاع أن يُدير دولته ويُحافظ عليها مع المشتبه بهم أكثر من غيرهم. لكن لا يمكننا الحديث عن هذا الأمير بشكلٍ واسع... لأن هذه الناحية تختلف حسب فاعلها... لذلك سأكتفي بالقول إنَّ هؤلاء الرجال الذين كانوا أعداء في البداية... والذين هم الآن على هذا الشكل من الثقة، بحاجة إلى سند يحافظون من خلاله على أنفسهم، ويُمكن للأمير دائماً أن يكسبهم إلى صفه بسهولة فائقة... وهم بدورهم سيكونوا مُجبرين على خدمته بإخلاص، لأنّهم يعلمون أنّه يتوجّب عليهم محو الفكّرة السيئة التي كانت لدى الأمير عنهم في البداية... ويحققون ذلك من خلال أعمالهم.

وهكذا، فإنَّ الأمير يستفيد منهم أكثر مما يستفيد من أولئك الذين، بسبب صدقهم الزائد في خدمته، يهملون هذه الأمور.

ولأنّ الموضوع يستوجب، لا أودّ التخلّي عن توجيه الأمراء الذين وصلوا إلى دولةٍ جديدة بواسطة اختيار الشعب ورغبته بأنَّ عليهم أن يأخذوا بعين الاعتبار السبب الذي دفع الذين فضّلوهم إلى هذا التفضيل. فإن لم تكن رغبة وميل طبيعي نحوهم... بل فقط لأنّهم غير راضين عن دولتهم... فإنّ هؤلاء الأمراء سيواجهون صعوبات جمّة ليكسبوهم كأصدقاء لأنّ إرضاء هذا الشعب سيكون مستحيلاً.

وبهذه الأمثلة المأخوذة من أمور قديمة وحديثة وبمناقشتنا الجيدة لأسباب ذلك... سنرى أنّ كسب هؤلاء الرجال الذين كانوا راضين سابقاً عن الدولة... أسهل بكثير من كسب أولئك الذين أصبحوا أصدقاء بسبب عدم رضاهم سابقاً عن دولتهم وبالتالي فقد سهّلوا على هذا الأمير احتلال دولتهم.

ومن عادة الأمراء أن ينشؤوا الحصون.. لتكون الرادع والعنان لمن ينوي التآمر عليهم... ولتكون الملجأ عند أي هجوم مُفاجئ. وهكذا يحافظون على

دولهم في أمان أكثر. وأنا بدوري أُثني على هذه الطريقة... لأنها استُخدِمَت منذ زمن طويل، ومع ذلك فإننا نرى السيد "نيكولا فيتولي" من عصرنا، قد هدم حصنين في مدينة "كاسيتو" لكي يكسب هذه الدولة، "جيودو أوبالدو" دوق "أوربينو" عاد إلى الهيمنة بعد أن كان قد طرده "سيزار بورجيا"، فهدم كل حصون مقاطعته رأساً على عقب... معتقداً أنّه سيصبح فُقدانها أكثر صعوبةً إذا هدمها. وأيضاً عندما عاد "البونتيفوجليو" إلى "بولونيا" قاموا بأعمال مشابهة فيها[(١)].

إذاً إن نفع الحصون أو ضررها يتحدد حسب العصر. وإن كانت تنفع من ناحية فإنها تؤذي من ناحية أخرى. فمثلاً على الأمير الذي يخاف من شعبه أكثر مما يخاف الغرباء... أن يُقيم الحصون. بينما يجب على ذلك الذي يخشى الغرباء أكثر... أن يتجاوزها.

في بيت "سفورزا" في قصر "ميلان" الذي شيّده "فرانسيسكو سفورزا" قامت وستقوم حروبٌ أكثر من أي بلبلة في هذه الدولة. ومن هنا نرى أن أفضل حصنٍ للأمير هو ألاّ يكون مكروهاً من شعبه... لأنَّه إن كان الشعب يكرهه... فإن الحصون لن تُنقذه... لأن الشعب سيتسلّح ضدّه وسيجد الدعم من الغرباء.

في عصرنا.. لا يُستفاد من الحصون لدى الأمراء... ما عدا الكونتيسا "فورلي" التي، عندما قُتِل زوجها الكونت "إيرونيمو" احتمت من الهجوم الشعبي عليها بواسطة الحصن... وانتظرت الإعانة من "ميلان" واستطاعت استعادة الدولة، وفي ذلك الوقت لم يكن الغرباء قادرون على مساعدة الشعب، لكن فيما بعد لم تخدمها الحصون أبداً عندما هاجمها "سيزار

---

(١) - "جيوفاين بونتيفوجليو" طُرد خارج "بولونيا" من قِبَل البابا "يوليوس الثاني. في عام ١٥٠٦ ابنه "هانيبال" هدم الحصن المبني من قِبَل البابا عندما عاد إلى المدينة عام ١٥١١- ١٥١٢.

بورجيا"... وارتبط الشعب "الذي يكن العداوة لها" بالغرباء. بالنتيجة كان من الأكثر أماناً لها بدايةً لو أنها لم تكن مكروهةٌ من الشعب على أن يكون لديها الحصون.

بالنظر إلى كل هذه الأشياء.. أرشّح قيام الحصون وعدم قيامها. وسألوم أيّاً كان إن بنى حصوناً دون أن يهتم بحقد الشعب عليه.

-٢١-

ما يجب على الأمير فعله لكي يحصل على التقدير

لا شيء يُعطي الأمير احتراماً وتقديراً كما تعطيه المشاريع العظيمة، وأن يكون هو ذاته أحد الأمثلة النادرة المشهود بها[١]. ولدينا مثال على ذلك من عصرنا هذا "فيرديناند دي اراغوث" ملك "إسبانيا" الحالي... الذي يمكن تسميته على وجه التقريب بالأمير الجديد. لأنّه بعد أن كان ملكاً ضعيفاً أصبح ملك المسيحيين الأول وذلك من خلال الشهرة والمجد.. فإذا تأمّلنا تصرّفاته سنجدها كلها عظيمة جداً، بل إنَّ البعض منها خارقٌ:

في بداية حكمه هاجم هذا الملك "غرناطة"، وكانت هذه المبادرة أساس دولته التي قادها قبل كل شيء إلى الرفاهية والراحة، دون أن يخاف من أي عائق... واستطاع بها أن يسلب عقول بارونات "كاستيليا" الذين لم يفكّروا بالتمرّد من جديد حيث قام بإشغالهم بهذه الحرب. وهكذا استطاع أن يكسب سمعة وسلطة عليهم دون أن يشعروا بها. كما استطاع تمويل الجيوش بأموال الكنيسة والشعب... وبناء أساس ميليشيته التي شرّفته ورفعت منزلته فيما بعد... وكل هذا كان بفضل هذه الحرب الطويلة.

إضافة إلى ذلك.. فقد ثابر على القسوة الورعة، لكي يتمكّن من المباشرة بمشاريع أكبر، فاستخدم في ذلك الدين دائماً. كما طرد من مملكته "الماران" و"السبولين"[٢] وهاجم "إفريقيا".. ودائماً تحت نفس الغطاء[٣]... لقد قاد المشاريع في

1- يجب على مواطني الجمهورية والأمراء الذين يريدون أن يكسبوا شهرةً عظيمةً.. أن يُعطوا عن أنفسهم أمثلة نادرة.. أي أن يجعلوا من أنفسهم نماذج يُحتذى بها.

2- تهجير اليهود عام ١٤٩٢ والحجْر على ممتلكاتهم من قِبل الملك في "أراغون".

3- النفاق والكذب.

"إيطاليا" وقاتل آخر المطاف "فرنسا".. وهكذا كان دائماً يعمل وينظّم الأمور العظيمة التي كانت دائماً تشد عقول رعيّته المعلقين به... ومعجبيه التّواقين إلى النتائج الصادرة عنها. وكانت أفعاله تتولد بعضها من بعض... فلم يكن هناك مجال بين الواحدة والأخرى ليتمكن الرجال من التحالف ضدّه بهدوء.

بالنسبة للحكم في الداخل.. من المفيد أيضاً للأمير أن يجعل من نفسه نموذجاً فريداً، كالأمثلة التي تُروى عن السيّد "برناردو" في ميلان[1] عندما يكون هناك فرصة للتحدّث عن أحد ما قام بعمل شيء خارق في الحياة المدنيَّة سواءً بالخير أو بالشر، فقد اعتمد طريقةً تُكافؤه أو تعاقبه حسب العمل وهذا جدير بالذكر.

ويجب على الأمير خاصةً أن يجتهد ليعطي عن نفسه في كل تصرّف من تصرّفاته، سمعة الرجل العظيم، والنابغة المميّز... وهناك شيء آخر يجعل الأمير محترماً وجديراً بالتقدير... وهو أن يكون صديقاً حقيقياً أو عدواً حقيقياً... أي عندما يكشف عن نفسه دون حذر أو خوف من أحد.. بأنَّه مع هذا.. وضد ذاك. إن هذا الجزء يبقى مفيداً أكثر من البقاء حيادياً لأنّه إذا اشتبك اثنان من جيرانك وكانا أصحاب سلطة ونفوذ واسعين... فعليك آنذاك أن تخشى المنتصر فإن الصراع القائم بينهما إمّا أن يكون من ذلك النوع الذي ينتصر فيه أحدهما أو لا يكون، وفي الحالتين من الأفضل لك أن تكشف عن ذاتك وتقوم بحرب حقيقيّة، لأنّه في الحالة الأولى إن لم تكشف عن نفسك وتحدد موقفك... ستبقى دائماً فريسةً للمنتصر... وليس لديك سببٌ أو أي شيء تدافع به عن نفسك... ولن يقبل أحد أن يستقبلك... فالمنتصر لا يرغب بصديق مُشتبه به ولم يُساعده في وقت محنته... والمهزوم لن ينظر إليك... فأنت لم تكن إلى جانبه وجانب جيشه ولم تشاركهم المصير.

1- "برناردو فيسكوني" (١٣٢٣ – ١٣٨٥) حكم على الجزء الشرقي من الأراضي الميلانيَّة (أراضي ميلان).

كـان "أنتيوشـوس" قـد اسـتُدعي إلى "اليونـان" مـن قِبَـلِ "الايتوليـان" لكـي يطـرد منهـا "الرومـان". فأرسـل السـفراء إلى أهـل أثينـا الـذين كـانوا أصـدقاءً "للرومـان" ـ لكـي يـضمن بقـائهم علـى الحيـاد. ومـن الناحيـة الأخـرى كـان "الرومان" يحرّضوهم لأخذ السلاح إلى جانبهم... وقد تم تـداول هـذه المسألة في مجلس شيوخ "أثينا" وحينها حثهم مبعوث "أنتيوشوس" على البقاء على الحياد... وهذا ماردَّ عليه المبعوث الروماني: «لم يعد هناك ما هو غير صالح لأعمالكم إلاّ ما تقولونه بأنّكم لن تأخذوا جانباً في الحرب، أنّكم ستكونون مكافأة للظافر دون منَّة وبامتياز».

ما يحصل في الواقع... أنَّ مَنْ ليس صديقك سيجبرك على البقـاء مُحايداً... بينما سيجرّكَ صديقكَ لتبقى إلى جواره في الحرب... وهذا ما ستكتشفه فيما بعـد بنفسك... والأمـراء المتمـرّدون يتبعـون في أغلـب الأوقـات الطريـق المحايـد لكـي يتجنّبـوا المخـاطر الحاليّـة... لكـنهم في حقيقـة الأمـر لا يكونـون قـد اتجهوا إلاّ نحو دمارهم... لكـن إذا أعلـن الأمير بكـل جسارة... أنّـه إلى جانـب أحد الأطراف... فإنه سيرتبط به عندما ينتصر... وبقدر ما يكـون هـذا الفريـق قوياً وقادراً... بقدر ما يستمر الأمير في ودّه ورحمته... وهذا سيولّد بينهما الحبَّ والعرفان بالجميل... فالرجال ليسوا علـى هـذا القـدر مـن السـوء وعـدم الشـرف بحيث يضطهدون الأمير في هـذه الظـروف... فيعطـون بـذلك عـن أنفسهم مثـالاً عـن نكـران الجميـل والعقـوق(١)، ثـم إنّ النـصر لا يُعتبر كـاملاً لدرجـة يسمح فيها المنتصر لنفسه بأن يدوس العدالة.

(١) . هنا الملاحظة غير متوقَّعة من "ميكافيللي" الذي أصرَّ في الفصل "١٧" على ضرورة أن ينمّي الأمير الخوف من العقاب عند رعاياه وألاّ يعتمد على الحب.

لكن إذا خسر الفريق الذي ارتبط به الأمير... فإنّ هذا الفريق سيرحّب به... وسيساعده بقدر ما يستطيع ليصبح رفيقه على القدر الذي يُمكن أن يرفع من شأنهما يوماً ما.

في الحالة الثانية أي عندما يكون الصراع من ذلك النوع الذي لا يخشى الأمير معه مَنْ ينتصر... فإن الارتباط بأحد الطرفين يعدُّ عملاً حكيماً تماماً... لأنّك أيها الأمير، ستساهم من خلال هذا في دمار أحدهما بمساعدتك لمن يجب إنقاذه... وفي حالة النصر سيبقى هذا الفريق تحت جانحك فهو يعلم بأنّه من المستحيل أن ينتصر بدونك.

وهنا أقول أنّه عليك أن تبتعد، أيها الأمير، بكل ما تستطيع عن إقامة صداقة مع مَنْ هو أكثر نفوذاً وقوّةً منك لكي تُلحق الضرر بالآخرين... ألهمَّ إلا إذا أجبرتك الظروف على ذلك. لأنّه، كما قلنا سابقاً، في حالة النصر ستبقى أسيره وعليك أن تتجنّب قدر المستطاع أن تكون تحت رحمة الآخرين، مثلاً "أهل البندقيّة" تحالفوا مع "فرنسا" ضد دوق "ميلان" وقد كان بإمكانهم تجنّب هذا التحالف الذي ساقهم إلى الدمار.

لكن عندما لا تستطيع تجنّب ذلك (كما حصل مع أهل "فلورنسا" عندما ذهب البابا و"الإسبانيون" مع الجيوش المحاربة إلى "لومبارديا") يجب عليك آنذاك أن تقبل وترتبط للأسباب المذكورة أعلاه. وليس هناك دولة لا تعتقد أبداً أنها قادرة دائماً على أخذ الجوانب الصحيحة، بل على العكس فإنه يجب وضع كل الجوانب تحت الشك، لأننا نجد هنا في نظام الأمور... أننا لا نسعى إطلاقاً لتجنّب عقبة إلاّ وتعترضنا عقبة غيرها... إذاً الحكمة تقوم على التعرّف على صفات العقبات واعتبار الأقل سوءً جيداً.

أيها الأمير... عليك أن تُظهر الحب للفضائل والميّزات، من خلال استقبال الرجال الفاضلين بشكل حسن والتشرّف بأولئك الذين يبرعون في فن أو

مهنـة... ثـم عليـك أن تُقنـع مواطنيـك بأنّـه يمكـنهم ممارسـة مهنهم في التجـارة والزراعــة ومهــن الرجــال الأخــرى بكــل هــدوء... وبأنّــك لا تخــشى تــزيين ممتلكاتك خوفاً من أن تُنتزع منك... كما لا تخشى الانفتاح في التجارة خوفاً من الضرائب. لكن عليك أن تقدّم الثمن لمن يريد أن يعمل هذه الأشياء... ولمن يفكّـر في تنميـة مدينتـه أو دولتـه بـأي طريقـة كانـت. وبالإضـافة إلى ذلـك... عليك أن تُشغل الشعب في الأوقات المناسبة من السنة بالاحتفالات والعروض. وبما أنَّ كل مدينة مقسومة إلى فنون وقبائل (أو أحياء) فعليك أن تجتمع معها في بعض الأحيان لتعطي بذلك مثالاً عن ذاتك في الإنسانية والعظمى.

المهم مع كل هذا أن تحتفظ دائماً بمركزك الذي ينبغـي ألا يُعـاب في أيّـة مناسبة أو فرصة.

-٢٢-

عن وزراء الأمير

إن اختبار الوزراء ومعرفة إن كانوا جيدين أم لا ، أمرٌ ليس قليل الأهميَّة بالنسبة للأمير. فمن خلاله تظهر حكمة هذا الأمير ويؤخذ الانطباع الأول عن تفكيره من خلال نظرة شاملة للرجال المحيطين به. فإن كانوا قادرين أوفياء، كان هو متبصّر حكيم لأنَّه استطاع اكتشاف مهاراتهم وقدراتهم وعرف كيف يُحافظ على وفائهم له. أمَّا إذا كانوا غير ذلك... فيمكننا حينها أن نطلق عليه حُكماً بأنّه قليل الحكمة، لأن خطأه الأول كان اختياره هذا.

فمثلاً... كل من عرف السيد "أنطونيو دي فونافور" كوزير لـ "باندولفو بوتروكسي"، وأمير لـ "سيّن"... شهد بأن "باندولفو" رجل باسل وذو قيمة لأنَّه اختار "أنطونيو" وزيراً له. إن العقول ثلاثة أنواع: الأول يفهم بذاته، والثاني يُدرك ما يفهمه الآخرون، أمّا الثالث فلا يفهم لا بذاته ولا من الآخرين... النوع الأول ممتاز جداً... والثاني ممتاز أيضاً... أمّا الثالث فهو غير نافع.. لذلك إن لم يكن "باندولفو" من النوع الأول فهو بالضرورة من النوع الثاني.

ففي كل مرّة يتوجّب فيها على شخص أن يحكم على قول أو فعل أحدهم بالجود أو بالسوء، وحتّى إن لم يكن لدى هذا الشخص تصوّر وخيال، فإنَّه ينظر إلى الأفعال الجيدة والسيئة للوزير، فيعظّم الأولى ويُصحح الثانية. وهنا يجب على الوزير ألاّ يأمل أن يخدع هذا الشخص ويبقى جيداً.

لكن كيف يُمكن للأمير أن يكتشف حقيقة وزيره؟ إليك الطريقة التي لا تخيب أبداً: إذا كان الوزير يفكّر بنفسه أكثر مما يُفكّر بك... ويهدف من وراء كل تصرّفاته إلى منفعته الخاصة، فاعلم بأنَّه ليس وزير جيد... وأنّك

لن تستطيع الاعتماد عليه قط، لأنَّ من لديه مسؤولية الدولة ليس عليه أبداً أن يفكّر بذاته... بل عليه التفكير دائماً بأميره ودولته... ولا يجب عليه أن يُسرف في الاهتمام بعمل لا يرفع من شأن الأمير.

ومن ناحية أخرى.. على الأمير أيضاً أن يفكّر بوزيره، لكي يبقى هذا الأخير جيداً ومفيداً... ويتجلّى تفكيره هذا من خلال تشريفه وتكريمه وجعله رجلاً غنياً... فيصبح بذلك خادمه الأمين. وعلى الأمير أن يجعل هذا الوزير يشترك بالتكريمات ويأخذ المسؤوليات، لكي يُدرك بأنّه لا يمكنه المحافظة على نفسه ومركزه دون الأمير، فتقديراته المتعددة تجعله لا يأمل بأكثر من ذلك... وأملاكه الكثيرة تجعله لا يطمح إلى المزيد من الغنى... ومسؤولياته الواسعة تُبعده عن الخوف من التغييرات.

عندما يكون الوزراء هكذا... يُصبح من الممكن لكل الأمراء والوزراء أن يعتمد بعضهم على بعض فإن لم يكونوا كذلك... فإن النهاية ستكون بالتأكيد مؤسفة للطرفين.

-٢٣-

كيف يمكن التخلّص من المتملّقين

في حديثنا عن الأمراء ومَن حولهم... هناك جانب هام وخطأ يدافع الأمراء قليلو الحكمة عن أنفسهم في وجهه بصعوبة، وليس في نيتي أن أهمل هذا الجانب....

ها هم المتملّقون يملؤون البلاطات.. لأن الرجال بحاجة إلى إرضاء أنفسهم بقدر من أعمالهم الخاصة التي يخدعون أنفسهم بها... حيث يدافعون من خلالها عن أنفسهم في وجه هذا الطاعون[1] وبسبب هذه الإرادة في الدفاع عن النفس يواجهون خطر الاحتقار، فليس هناك طرق أُخرى لحماية أنفسهم من المتملّقين، إلاّ إذا فهم الرجال أنهم لا يسيؤون للأمير إذا قالوا الحقيقة له.

لكن عندما يُصبح قول الحقيقة هذا مُتاح للجميع يقلُّ احترام الأمير. إذاً، يجب على الأمير إن كان حكيماً أن يعتمد الطريقة الثالثة فيختار من دولته رجالاً عُقلاء يُعطي لهم فقط حرّية قول الحقيقة... وأيضاً ليس في كل المواضيع، بل فقط فيما يخص الأمور التي يطلبها هو منهم. ومع ذلك يبقى من الواجب عليه أن يسألهم ويستشيرهم ويسمع رأيهم... ومن ثم يأخذ قراره النهائي وحده وعلى طريقته. وبذلك يعلم هؤلاء الناصحون بأنهم كلما تكلّموا بصراحةٍ وحريةٍ أكثر، زاد تقبُّل الأمير بهم وإعجابه بهم.. فهو لن يرغب في سماع أحدٍ سواهم وعندها سيسير أو سيغيّر رأيه غالباً بسبب الآراء المختلفة... ومن هنا تتولّد قلّة تقديره واحترامه.

---

(١). التملُّق.

وأريــد هنــا أن أورد مثــالاً حــديثاً عــن الكــاهن "لوقــا"، رجــلٌ مــن "ماكسيميان" والإمبراطور الحـالي... قيـل عـن عظمتـه أنّـه لم يأخـذ بنـصح أحد... ومع هذا لم يقم بشيء على طريقته... وهذا يدلُّ على أنّه كان يتصرّف بعكس الـوارد أعـلاه، فـالإمبراطور رجـل سـرّي وكتـوم، لا يـشارك أحـداً أفكاره ولا يقول لأحد عن أهدافه.. ولا حتّى يأخذ برأي أحد فيما يخصُّ هـذه الأهداف. لكن ما إن يبدأ بالتطبيق حتّى يبدأ بالكشف والإيضاح... ويرافق ذلـك مواجهـة لاعتراضـات مَنْ حولـه، الـذين لم يفهمـوا مـا يريـده أو مـا ينـوي عمله... وبالتالي لا يُمكن الوثوق بهذه القرارات.

إذاً، يجب على الأمير دائماً أن يستشير ويأخذ النصح، لكن عندما يريد هـو ذلـك ولـيس عنـدما يريـده الآخـرون، بـل علـى العكـس عليـه أن يـردَّ كـل ناصح لم يطلب منه النصح. وبالمقابل عليه أن يكون مُطالباً واسـعاً للنـصيحة، وأن يكون فيما يخص الأشياء المطلوبة مستمعاً صبوراً حقاً، وأن يثور على مَن يُخفي عنه الحقيقة.

وكـل مَـنْ يظـنُّ أن هنـاك أمـير صـنع سمعـة وقيمـة مـن خـلال نـصائح وآراء الآخرين وليس بطبيعته، يكون مخطئ، لأن القاعدة العامة التي لا شك فيها تقـول أنَّ الأمـير الـذي تنقـصه الحكمـة والتبـصُّر، لـن ينتـصح أبـداً بحكمـة غيره، إلا إذا وضـع نفسه بكلّيتـه تحـت حكـم رجـلٍ حكـيم وذلـك لا يـتم إلا بالـصدفة، وفي هـذه الحالـة يمكـن أن يكـون أمـيراً جيـداً.. لكـن حكمـه لا يطول، لأن هذا الرجل الحكيم سينتزع منه الدولة بوقت قصير جداً.

وإذا أخذ الأمير بنصيحة أكثر من شخص، وكان من النوع الذي تنقصه البصيرة، فإنه سيجد نفسه دائماً أمام آراء متعارضة، ولن يعرف كيف يرتبها ولا كيف يوحدها ليصل إلى ما يريد.

في الحقيقة... إنَّ مَنْ ينصح لا يفكّر إلاّ بما يعود عليه بالنفع، أو بما يتصل به بشكل أو بآخر. ولن يُصلح الناصحون... ولن تُعرف حقيقتهم، ولا يمكن للأمور أن تكون غير ذلك، لأن الرجال أشرار دائماً، إلاَّ إذا أُجبروا على أن يكونوا طيبين.

وهكذا نجد أنَّ النصائح الجيدة تعود دائماً لحكمة الأمير ذاته، وليس حكمة الأمير مصدرها هذه النصائح الجيدة.

-٢٤-

لماذا فقد أمراء إيطاليا مملكاتهم

إذا ما أُخذت الأمور الآنفة الذكر بعين الحكمة.. فإنها تجعل الأمير الجديد يبدو كأنّه قديمٌ، وتزيده طمأنينة ورسوخاً في الدولة. لأنّ تصرّفات هذا الأمير الجديد تكون محط الملاحظة أكثر من تصرّفات الأمير بالوراثة، وعندما تكون مشهورة بفضيلتها... فإنّها تجذب الرعايا وتُخضعهم أكثر بكثير مما تُخضعهم دماء الأسلاف... فالناس يؤخذون بالأمور الحاضرة أكثر مما يؤخذون بأمور مضت... وعندما يجدون الخير والإحسان في الحاضر، يرتبطون به ولا يبحثون عن أي شيء آخر. بل على العكس... يُدافعون بكل قوّتهم عن حاكمهم إذا هو أبدى جدارةً في ذاته بالنسبة للأمور الأخرى. وهكذا، سيكون له مجدٌ مضاعفٌ، لأنه بدأ إمارة جديدة، ثم لأنه جمّلها ورسّخها بالقوانين الجيدة والجيش المنظّم والأمثلة والنماذج الحسنة. هذا عكس الأمير بالوراثة. الذي سينال هواناً مضاعفاً إذا فقد دولته لضعف حكمه.

وإذا ما نظرنا في عصرنا هذا إلى الأمراء في "إيطاليا" وكيف فقدوا دولهم، مثل ملك "نابولي" ودوق "ميلان" وآخرين[١] سنجد فيهم عيباً مشتركاً بالنسبة للجيش... وذلك لنفس الأسباب التي ناقشناها سابقاً بشكل مطوّل... كما سنجد بعضاً منهم عدواً للشعب، أو رغم صداقتهم له لم يستطيعوا أن يأمنوا الكبار أي السادة...

---

(١) ـ حيث هزموا مِن قِبل الجيش الفرنسي "لودوفيكو سفورزا" أضاع "ميلان" عام ١٥٠٠، و"فريدرك الأول" من "أراغون" أضاع "نابولي" عام ١٥٠١.

ودون هـذه العيـوب لا تُفقـد الـدول إن كانـت ذات بـأس وقـوّة كـافيتين ليجعلا لها جيشاً في الريف.

"فيليـب المقـدوني" لـيس والـد "الاسـكندر"، بـل ذلـك الـذي هُـزم مـن قِبَـلِ "تيتـوس كينتـوس"، لكنّـه تمكّـن مـن الاسـتمرار في حـرب طويلـة لـسنوات عديدة... لأنّه رجل حرب ويعرف التوصل إلى إقامة علاقة جيدة بالشعب ويعرف كيف يُحافظ على هذه العلاقة ويحفظ نفسه من أذى السادة. وبالرغم من أنّه قـد فقـد الـسيادة علـى بعـض المـدن في النهايـة، إلاّ أنّـه حـافظ علـى ملكيّتـه للمملكة.

بالنتيجـة، يجـب علـى الأمـراء الـذين بقيـوا في إمـاراتهم لـسنوات عديـدة ومتكـررة... ثـم فقـدوها، .. ألاّ يتّهمـوا القـدر بـذلك... بـل علـيهم الاعـتراف بتكاسلهم، فهم لم يفكّروا أبداً خلال الأوقات الهادئة بأن الأمور يُمكـن أن تتغيّر... وهذا خطأ شائع. ففي الهدوء والاستقرار لا يُحسب حسابٌ للعاصفة، وفيمـا بعـد عنـدما تـأتي أوقـات المحـن والفوضـى، يفكـرون بـالهرب بـدلاً مـن الدفاع عن أنفسهم، ويأملون أن يتذكرهم ذلك الشعب المتضايق من إزعاجات المنتصرين.

إنَّ هذه الناحية تعدُّ جيـدة عنـدما يرتكـب الآخـرون خطـأً... لكنهـا سيئة جداً عندما نترك الآخرين يعالجوننا، فنستسلم وننتظر مَنْ ينتشلنا... وهذا أمـر نادر الحدث... ولكن سواءً أحدث أم لم يحدث هو غير آمن... إنَّه دفاع دنـيء لا يليق بالأمير.

أمّا الوسائل الجيدة والمؤكدة والمستمرة... فهي فقط التي تنبثق من الأمـير وحده وتتعلّق بفضيلته.

-٢٥-

سلطة القدر في الأمور الإنسانية وكيف نقاومها ؟

إنني أعلم أن لدى الكثيرين[1] اعتقاد راسخ بأن الأمور في هذا العالم محكومة بالقدر والله، وأن الإنسان لا يمكنه تحسينها بحكمته، فهي أمور ثابتة لا يمكن تغييرها، ولا ينفع معها أي علاج... لذلك نجد أن هؤلاء الناس قد توصّلوا إلى القناعة بأنّه لا جدوى من إنهاك النفس كثيراً في الأمور... بل يجب تركها لحكم الصدفة.

وتضخّم هذا الاعتقاد في عصرنا.. فإننا قد شاهدننا ونشاهد آثاره في كل يوم، من خلال التغييرات الكبيرة للأمور التي هي خارجة عن كل توقّع إنساني.

وأنا شخصياً عندما أفكر فيها، في بعض الأحيان، أميل إلى الاعتقاد بصحتها نوعاً ما، لكن لكي يبقى هناك مكان لحكمنا الخاص (الذاتي الحر).. أجد أنه من الجائز أن يكون القدر سيد نصف تصرفاتنا... لكنه في الوقت ذاته يترك لنا حكم النصف الآخر، أو ما يُقارب النصف.

في الواقع.. إن هذا الاعتقاد... مثل تلك الأنهار المدمّرة التي تجتاح الوديان والسهول عندما تغضب، فتدمّر الأشجار والأبنية وتحمل معها التربة من مكان إلى آخر... فيفرُّ الجميع هاربين من أمامها، ويخضع كل شيء

(١) . من يكونون؟ من بينهم الأسلاف مثل "تيوفراست وسيسرون وسالوسن "وربما "دانتي" لكن من الممكن التفكير أيضاً بأن "ميكافيللي" يتحدّث عن رأي ذائع الصيت، مرتبط بالمذهب المسيحي القائل بأنَّ العناية الإلهية هي مبرر الوجود هذا من جهة، ومن جهة أخرى مرتبط بالمعتقدين بعلم التنجيم الحتمي.

لهجومها... دون أن يكون هناك قدرة على وضع حد لها في أي اتجاه... وبعد أن تهدأ الأمور ويكون كل شيء قد تم... لا يبقى إلا الأشخاص الذين يستطيعون التصدي له فيقومون ببناء الملاجئ والسدود بحيث أنّه عندما يغضب في المرّة القادمة، إمّا أن ينصرف في قناة.. أو أن يكون هجومه أقل ضرراً وفجوراً...

هذا المثال يبيّن بالضبط ما يحدث مع القدر الذي يثبت قوّته هناك حيث لم نقم شيء لمقاومته، ويلتفت بغاراته إلى حيث يعلم بأننا لم نقيم في وجهه السدود والملاجئ لنتمكّن منه.

الآن إذا نظرنا إلى "إيطاليا" مهد هذه التغييرات، وإلى الحركة التي أعطتها هذه التغيرات، فإننا سنرى بأنها حقل دون ملاجئ أو سدود، ولو أنها احتمت خلف فضيلة مناسبة مثل ما كان في "ألمانيا" و"إسبانيا" و"فرنسا"، لما تسبب هذا الفيضان بالتغيرات الكبيرة التي حصلت، أو ربما لم يكن قد أتى هذا الفيضان أصلاً. ويكفيني قول هذا بالنسبة للتصدّي للقدر، بشكل عام، لكن إذا خُضنا أكثر في التفاصيل... سأقول بأن هذا الأمير سعيدٌ اليوم... لكنه يمشي إلى هلاكه في الغد، دون أن يكون قد استطاع تغيير شيء في الطبيعة، واعتقد أن هذا قد تولّد من أسباب ناقشناها سابقاً مطولاً: هذا الأمير الذي يعتمد بشكل كامل على القدر، يسير إلى دماره عندما يتغيّر القدر. وذلك الذي تتلاءم طريقة تصرّفه مع صفة الظروف، يكون سعيداً، وبالعكس من لا تتلاقى طريقة تصرّفه مع الظروف يحيا تعيساً مكدّراً. فنحن نحكم على الرجال من خلال الأمور التي تقودهم إلى النهاية التي يسعى لها كل شخص، وهي المجد والثروة... وكلٌّ يسعى بطريقته... فواحد بحذر والآخر بطيش... والثالث بعنف وغيره بفن... والبعض بصبر وآخر بتسرّع وفي النهاية سيصل جميعهم لكن بطرق مختلفة.

إنّ رجلان متيقظان الأول يسعى لغايته والآخر لا، يتمتعان بسعادة متساوية ولكن بطرق متباينة... فواحد منهم حذر والآخر متهور. إن هذا يبين لنا صفة الظروف التي تلائم أو لا تلائم تصرّف الشخص.. ومن هنا نجد أن هذان الاثنان اللذان عملا بشكل مختلف استطاعا الوصول إلى نفس النهاية... وبالعكس، قد يكون لدينا رجلين يعملان بشكل متماثل... فيصل الأول إلى الدمار والآخر إلى السعادة.

ومن هذا المنطلق أيضاً يتنوع الخير والسعادة. فبالنسبة لرجل يحكم بتيقظ وصبر، إذا تحوّلت الأمور والظروف بحيث يكون حكمه جيداً، فإن ذلك سيوصله إلى السعادة... ولكن إذا ما أدارت هذه الظروف والأمور له ظهرها فإن دماره سيكون قريباً... لأنّه كان لم يغير طريقة التيقظ والصبر التي سار عليها والتي لم تعد تلائم الظرف الآن. وليس هناك رجل حكيم لدرجة يعرف معها كيف يتوافق مع هذا... وذلك إمّا لأنه لا يستطيع الخروج عمّا دفعته إليه الطبيعة... أو لأنّه كان ناجحاً دائماً بالسير متمهّلاً على دربه... ولا يمكنه إقناع نفسه بأنه سيكون جيداً إذا ترك هذا الطريق[١] لذلك نجد الرجل المتيقّظ... عندما تواتيه ظروف تتطلّب التصرّف بتهوّر، لا يعرف كيف يقوم بذلك... وهكذا فإنه يسير إلى دماره، وحتّى لو أنّه استطاع تغيير الطبيعة (أي طبيعة تصرّفه) مع الظروف والأشياء، فإن القدر لن يتغير.

كان البابا "يوليوس الثاني" متهوّراً في كل تصرفاته، وقد كانت الظروف والأمور مناسبة جداً لنهجه هذا... فكان يحصل دائماً على نهاية سعيدة. لننظر إلى مُبادرته الأولى ضد "بولونيا"[٢]، عندما كان السيد "جيوفاني بو نتيفو جليو" مازال على قيد الحياة، وفي ذلك الوقت لم يكن

(١) . يشير "ميكافيللي" من جديد إلى أثر العادة في فهم نجاح أو فشل التصرُّف.

(٢) . دخل منتصراً إلى "بولونيا" عام ١٥٠٦.

"أهل البندقيّة" راضون ولا ملك "إسبانيا". وكان آنذاك البابا "يوليوس" داخلاً في محادثات مع "فرنسا" بخصوص محاولته هذه. وبالرغم من تهوّره... فقد سافر شخصياً ليقوم بهذه الحملة... وهكذا كانت حركته هذه نافعة، فقد تشتتت "إسبانيا"، وتعلّق به "أهل البندقيّة" ورضخوا له بدافع الخوف. أمّا "إسبانيا" فقد كان دافعها هو رغبتها باستعادة كل مملكة "نابولي".

وقد قام هذا البابا بجعل ملك "فرنسا" من أتباعه، لأن هذا الملك، عند رؤيته له في تحرُّك ورغبته بأن يكون صديقاً له ليساعده هذا الأخير في إخضاع "أهل البندقيّة"، رأى أنَّه لا يستطيع أن يرفض تقديم جيوشه دون أن يكون قد تعدّى عليه بشكل واضح.

لقد استطاع البابا "يوليوس الثاني" أن يقود بحركة متهوّرة، ما لم يقدر بطريرك آخر أن يقوده بكل الحكمة الإنسانيّة، فلو أنّه انتظر إلى أن تكون النتائج مؤكدة وتنظيم كل الأشياء تام، ليترك "روما". مثل ما كان أي بطريرك في مكانه سيفعل، لما نجح أبداً، لأن ملك "فرنسا" كان سيجد ألف عذر، وكان الآخرون سيوحون إليه بألف خوف.

والآن سأترك لكم تصرفاته الأخرى... والتي هي مُتشابهة جميعاً وناجحة برمّتها. فإن قُصر حياته لم يترك المجال لإثبات العكس. فلو أنَّ ظروف مفاجئة قد واجهته وتوجّب عليه فيها أن يتصرّف بتيقّظ وحذر لما استطاع الوصول إلاّ إلى الدمار، لأنّه لن ينحرف عن هذه الوسائل التي مالت به طبيعته إليها.

وأختم حديثي بالقول: إن القدر والظروف متحوّلات ومتغيرات، لكن الناس مستمرّون بالتمسُّك بطرقهم ذاتها... إنهم سعداء طالما أنهم يتوافقون مع الظروف والقدر، لكن التعاسة ستكون من نصيبهم عندما يختلُّ هذا التوافق.

من جهة ثانية أرى أنَّه من الأفضل لك، أيها الأمير، أن تكون متهوّراً على أن تكون حذراً، لأن القدر امرأة لا بد من ضربها ومجابهتها عندما تُريد أن تُخضعها فهي بهذه الطريقة تنهزم أكثر مما تنهزم إذا تصرّفت ببرود. ولكونها امرأة فهي صديقة دائماً للشباب لأنّهم أقل حذراً وأكثر ضراوة ويعاملونها بجرأة أكبر.

-٢٦-

إرشاد لأخذ "إيطاليا" وإنقاذها من البربر

إذاً بتأمُّل كل هذه الأمور التي ناقشناها سابقاً، وبالتفكير من قِبَلي شخصياً إن كانت الظروف الحالية في "إيطاليا" ملائمة لتكريم أمير جديد... وإن كانت تتوفر المادة التي تُعطي الرجل الحكيم الفاضل فرصة مناسبة ليُدخِل إلى "إيطاليا" الشكل والصيغة اللذان يُكرّمانه ويُسعدا شعبها. من خلال كل ذلك يبدو لي أن هناك مقداراً من الأمور ستساعد في إنجاح هذا الأمير الجديد. ولا أعرف وقتاً أكثر ملائمة لذلك من هذا الوقت... فإن كان كما قلتُ سابقاً، من الضروري أن يكون الشعب "الإسرائيلي" عبداً في "مصر"، لتظهر فضيلة موسى، وأن يكون "الفُرس" مضطهدين مِنْ قِبَلِ "الميديين" لمعرفة عظمة فطر وروح "سيروس"، وأن يكون "أهل أثينا" مشتتين لمعرفة تفوّق "تيزيه"... وهكذا، فإنَّه من الضروري في الوقت الحاضر لمعرفة ميّزة وفضيلة الفكر "الإيطالي"، أن تكون "إيطالية" مُصغّرة إلى الحدود الحالية... وأن تكون عبدة أكثر من العبرانيين، ومُسخْرة أكثر من "الفرس"، و"مُشتتة" أكثر من أهل "أثينا"، وأن تكون دون زعيم ودون تنظيم، ومُغتصبة ومهزومة ومجرّدة وممزّقة ومُداسة. وأن تكون قد قاست كل أنواع الدمار.

ومع أنّه في بعض الأحيان... كان يومض هنا أو هناك بارقاً يجعل الحكم ممكناً بأنَّ هذا الوميض مبعوث من الله لمساعدتها (أي إيطاليا)، إلاً أننا في أعقاب ذلك كنا نرى دائماً بأنَّ هذا الوميض (إي الشخص الذي بعثه الله

لمساعدة إيطاليا) كان مُستتكراً من القدر[١] وهو في أعلى درجات أعماله. لقد كانت "إيطاليا" تنتظر، وهي تقريباً دون حياة، ذلك الذي سيأتي ليضمّد جراحها ويضع نهاية لنهب "لومبارديا"، ويُطالب مملكة "نابولي" و"توسكان" بالفدية.. ويُداوي تلك الجروح المتقرّحة بفعل طول الزمان. إنها تدعو اللّه ليبعث لها شخصاً يُحررها من هذه الوحشية وهذه المظالم والهجمات البربريّة. وهي مستعدّة تماماً للسير خلف بيرقٍ، بشرط أن يكون هناك مَن يُمسك هذا البيرق. وفي هذا الوقت ليس هناك من هو أكثر جدارةً من منزلكم الكريم لتعلّق عليه آمالها. لقد اختاره اللّه والكنيسة بقدره وفضيلته. إنها ستحافظ على ذلك الأمير الذي يستطيع أن يجعل من نفسه قائد هذا الخلاص[٢] ولن يكون الأمر صعباً جداً إذا وضعتم نُصب أعينكم[٣] أفعال وحياة أولئك الذين ذكرناهم أعلاه... ومع أن هؤلاء الرجال نادرون ومُدهشون إلاّ أنّهم يبقون رجالاً في النهاية... وكل واحد منهم كانت له فرصة أقلُّ من الفرصة الحالية... فمحاولاتهم لم تكن أكثر عدلاً من هذه... ولا أكثر سهولة، ولم يكن اللّه صديقاً ومعيناً لهم أكثر مما هو صديقٌ ومعينٌ لكم. فهنا يوجد عدلٌ كبير... لأن الحرب عادلةٌ لمن هم مجبرون عليها... والسلاح تقي ورع عندما لا يوجد الأمل إلاّ فيه. وهنا أيضاً الترتيب كبير ولأبعد الحدود وليس فيه صعوبات كبيرة. كل هذا شريطة أن تتخذوا قدوةً لكم شخصاً من أولئك الذين عرضتهم عليكم... "موسى ـ سيروس.... إلخ" بالإضافة إلى ذلك نرى هنا أعمال خارقة لا مثيل لها مسيّرة من اللّه عز وجل: البحر ينشق، والغيمة تحرس على طول الطريق، والحجر يُفرغ الماء من جوفه، وهنا تُمطر الدنيا مناً... إن كل الأشياء تُساعد في عظمتك... أمّا ما تبقى فيجب عليك

(١) ـ تلميح إلى "سيزار بورجيا".

(٢) ـ البابا "ليون العاشر" هو "جان دو ميدتشي".

(٣) ـ هنا يخاطب بالجمع من باب التفخيم والاحترام.

القيـام بـه بنفسـك، لأن الله لا يريـد أن يعمـل كـل شـيء عنـك لكـي لا تفقـد حرّية الاختيار، والنصيب من المجد الذي يعود علينا.

ويجب ألاّ نندهش من أنَّ أحداً من الإيطاليين المُسميّن أعلاه لم يستطع عمل ما كُنَّا نأمل من فخامة منزلكم أن يعمله، وأنّه أثناء سلسلة من الثورات والتخريبات الحربيَّة في "إيطاليا" كان يبدو أنّه ليس لديها (أي إيطاليا) ميّزة عسكريّة وذلك بسبب تنظيماتها القديمة التي تنقصها الجودة. وما من شيء يُشرّف الإنسان الذي ينهض من جديد مثل ما تُشرّفه القوانين والتنظيمات الجديدة التي يتوصّل إليها، فعندما تكون هذه الأشياء مؤسسة جيداً ولها عظمتها، تجعل من ذلك الإنسان الذي أوجدها يستحق الاحترام والإعجاب، و"إيطاليا" ليست مفتقرة إلى من يقوم بعملية الإصلاح هذه، وتكون الفضيلة هنا كبيرة في الأعضاء إذا لم ينقصهم الزعماء[1]. في المبارزات ولقاءات الفرق الصغيرة يُظهر الإيطاليون تفوّق كبير في القوّة والمهارة والحذق... لكن عندما يتعلّق الأمر بالجيش فإنَّ وجودهم يتضاءل أمام غيرهم. وهذا نتيجة لضعف قادتهم.

فمن لديهم معرفة يأبى أن يطيع أحداً... والمشكلة أن كل واحد يعتقد بأنه يعرف، وفي الواقع لا أحد متميز جداً لا بميزات شخصية ولا بالمصادفة والقدر... لدرجة يتنازل معها الآخرون له لذلك نجد بأنّه... خلال وقت طويل جداً... وخلال عدّة حروب طالت ٢٠ سنة ماضية، عندما كان هناك جيش إيطالي بالكامل، أثبت هذا الجيش عدم جدارته، وهذا ما يشهد عليه أولاً "التارو" ثم "الإسكندرية" و"جيني" و"فيلا" و"بولونيا" و"ميسترو"[2].

1- هنا "ميكافيللي" يقتفي أثر التشبيه العضوي لوصف القدرات العسكرية الإيطالية: اللفظ (كابو) يعني أيضاً (الرأس) مثلما يعني (القائد) بينما تعود "الأعضاء" للجسم.

2- انهزامات إيطاليا في وجه الجيوش الأجنبية الفرنسية والإسبانية: والبعض منها معاصر لتحرير (كتابة) هذا الكتاب. "التارو" ١٤٩٥، "الإسكندرية" ١٤٩٩، "كابو" ١٥٠١، "جيني" ١٥٠١، "فيلا" ١٥٠٩، "بولونيا" ١٥١١، "ميسترو" ١٥١٣.

إذاً، إن كان منزلكم الشهير يرغب بأن يلحق بهؤلاء الرجال المتفوقين جداً الذين أنقذوا مقاطعاتهم فيجب قبل كل شيء كأساس حقيقي لكل محاولة أن تتقوّى بجيش خاص، لأننا لا يمكن أن نملك جنوداً أكثر وفاءً، وجديةً وجودة... ومع أنَّ كل واحدٍ منهم جيدٌ، لكنهم مع بعض يصبحون أفضل عندما يرون أنهم تحت قيادة أميرهم، يُكرّمون منه ويقوّي علاقتهم به.

بالنتيجة، من الضروري أن يتجهّز الأمير بهذه الجيوش، لكي يستطيع مع الفضيلة الإيطالية أن يحمي نفسه من الغرباء، فبالرغم من أنَّ المشاة السويسريون والإسبان يُعتبرون أقوياء مرعبين، إلاّ أن هناك عيوباً في كلاهما تجعل نظاماً ثالثاً قادراً ليس فقط على مجابهتهما بل أيضاً أن يكون واثقاً من انتصاره عليهما لأن الإسبانيين لا يستطيعون أن يصمدوا في وجه الفرسان والسويسريون يجب أن يخافوا عساكر المشاة الأقوياء مثلهم عندما يلتقون بهم في معركة.

من هنا نرى وسنرى بالخبرة أنَّ الإسبان لم يستطيعوا أن يُقاوموا الفرسان وأن السويسريون قد دُمّروا بفرقة مشاة إسبانية. ومع أنّه لم يكن لدينا معرفة تامة بهذه الحالة الأخيرة، غير أننا استطعنا أن نستخلص منها ما حدث في يوم "الرافين"، عندما تصدّى المشاة الإسبان لأفواج الألمان الذين لاحظوا نفس التنظيم للأفواج السويسريّة.

وفي تلك الواقعة استطاع الإسبان الاندساس بفضل خفّة جسدهم وبمساعدة دروعهم[1] بين رماح الألمان ليتواجدوا في الأسفل ويؤذوهم بسرّية وهدوء دون أن يجد هؤلاء مخرجاً أو علاجاً لذلك ولو تواجد الفرسان ليتصدّوا لهم لاستطاعوا أن يُجهزوا عليهم جميعاً.

إذاً... بعد معرفة عيوب فرق المشاة هذه أصبح بإمكاننا أن ننظّم فرقة جديدة تُقاوم الفرسان ولا تخاف المشاة... وهذا ما سيتحقق من خلال تغيير

1- بفضل الدروع الخفيفة التي كانوا يحملونها.

الأنظمة ونوعية الجيوش. وهذه الأمور هي التي تُعطي سمعة وعظمة للأمير الجديد بعد أن يكون قد أُعيد تنظيمها.

علينا ألاّ نترك هذه الفرصة تفوتنا... لكي ترى "إيطاليا" بعد زمن طويل، أنَّ مُخلصها قد ظهر... وعندها لا يمكنني أن أصف بأي حبٍّ سيُستقبَل في كل المقاطعات التي وقفت في وجه التجاوزات الخارجية، ولا بأي تعطُّش للثأر... وبأي إيمان راسخ... وبأي شفقة ودموع... لكن أي الأبواب ستُغلق في وجهه؟ وأي الشعوب سترفض طاعته؟ وأي تَطلُّعات ستعارضه؟ وأي إيطالي سيرفض احترامه؟...

إن هذه السيادة البربريّة قد قززت الجميع... فيا ليت منزلكم الشهير يلتزم بهذا ويقود كل المشاريع بهذه العقلية. هذا الأمل لكي يُصبح الوطن عظيماً مكرّماً تحت شعاره... وتحت رعايته ويتحقق ما قاله "بترارك":

فضيلة ضد الثورة

ستأخذ السلاح والمعركة ستكون قصيرة

لأن القيمة القديمة

في قلوب الإيطاليين لم تمت بعد[١].

---

(١) . هذه الأبيات مُختارة من أغنية "إيطاليا".

الفهرس